دفاتر الشاوية

المقاومة الوطنية في الشاوية



دراسات



مؤسسة تامسنا للدراسات والأبحاث حول الشاوية

دفاتر الشاوية

المقاومة الوطنية

في الشاوية

كتاب : المقاومة الوطنية في الشاوية
سلسلة : دفاتر الشاوية
منشورات مؤسسة تامسنا للدراسات والأبحاث حول الشاوية
العنوان : كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ بنمسيك ـ الدار البيضاء
ص.ب. المركزي 13027 ـ الدار البيضاء 01
مطبعة دار القرويين ـ الدار البيضاء
التوزيع : سابريس
الطبعة الأولى : 31 يوليوز 1999
الإيداع القانوني : 828 ـ 99

تتوجه منشورات المؤسسة بخالص تقديرها للسيد مصطفى برة
على دعمه لإصدار هذا الكتاب

دراسات :

المقاومة الوطنية في الشاوية

دفاتر الشاوية

منشورات مؤسسة تامسنا للدراسات والأبحاث حول الشاوية

تقديم

إن البحث في تاريخ منطقة ما، بشكل كلي أو جزئي، لا ينتهي بندوة أو بكتاب في الموضوع، وإنما تتجدد بدايته مع كل تفكير وبمعطيات تتفتح على أفكار جديدة.

وحينما يتعلق الأمر بمنطقة الشاوية فالمسألة مضاعفة لاعتبارات، من أهمها أن الشاوية لم تنل حظها كاملا من البحث في مختلف المجالات بالشكل الجدي، ثم أن ما كتب حتى الآن هو بدايات للبحث ولا يشغل غير جزء يسير مما يجب علينا جميعا التنقيب فيه.

وفي هذا الإطار يأتي هذا المؤلف الذي تصدره مؤسسة تامسنا للدراسات والأبحاث حول الشاوية، يجمع بين دفتيه بعض الكتابات التي ترصد لحظات متسلسلة في تاريخ الشاوية منذ ما قبل الانتفاضة الشعبية ضد الاستعمار الفرنسي (1907) إلى ما تلاها من أحداث ومقاومة.

وهو في العموم ليس سوى مساهمة للمزيد من التحفيز على البحث حيث مايزال الأفق رحبا يتسع لأبحاث أخرى، في مجالات لا تحصى من ضمنها أساسا، ما يتعلق بالتاريخ في مستوياته المتصلة بالقديم والمعاصر عبر ما هو مكتوب أو ما هو شفوي أو من خلال الحفريات الأثرية، أو ما يتعلق بنوع آخر من التاريخ الاجتماعي والثقافي والمتخيل بكافة وجوهه المكتوبة والشفوية المتصلة بالحياة اليومية والدينية.

مـن الـثـورة إلـى الانـتـفـاضـة

شعيب حليفي

شكلت الأحداث التاريخية في مغرب بداية القرن العشرين، وبالتحديد بمنطقة **الشاوية**، علامة فارقة ذات أبعاد ودلالات مازال الباحثون والمهتمون، حتى الآن، بقضايا التحرر الشعبي، ينقبون من أجل فهم الحدث وربطه بما سبق وما سيلي.

ولأنه لم يكن حدثا عابرا، ولا حركة طارئة في تاريخ المغرب الحديث، فقد رسم لنا ثلاثة ملامح في حياتنا : وهي التأكيد على **هوية المقاومة والجهاد**، والرغبة الفطرية في التحرر ثم التنمية المستمرة للأمل رغم كل العراقيل والمآزق الصعبة.

لذلك لم يكن ما وقع في سنتي 1907 و 1908 حدثا بالمعنى العام أو بالدلالة التي يوحيها التاريخ المولع بوسم الوقائع، بأقرب مفردة، حتى وإن كانت لا تعبر إلا عن جزء منه، وبعد ذلك يتنافس المشتغلون بالتاريخ أو ببعض من مراحله في التوصيف والنعوت... لم يكن ذلك حدثا ضيقا! وإنما هو إطار عام يختزل إرثا تاريخيا مزدوجا، يتمثل في الرغبة الدائمة للأجنبي في الاحتلال ونهب خيرات المنطقة والوطن عبر أية وسيلة، مقابل ذلك هناك التصدي الشعبي الذي يتحول إلى مقاومات بأشكال مختلفة تربط ذلك الحاضر بالماضي الطويل ـ المثخن، وبهذا المستقبل.

فطرية الصراع والمقاومة

يتحدد موقع منطقة الشاوية الكبرى قديما ما بين وادي أم الربيع ووادي أبي رقراق. وبين حدود المحيط الأطلسي وجبال الأطلس، وربما امتدت أوسع من هذا في فترات معينة، ذلك أن وجود المنطقة يرجع إلى حوالي مليون سنة خلت، كما كشفت عن ذلك الحفريات التي رصدت وجود أقدم آثار للوجود البشري ومازال مجهودات المتخصصين جارية في التنقيب عن علامات مادية مؤكدة.

ولعل من أهم مميزات طبيعة المنطقة هو الكتابات التي رصدتها من خلال وصفها في عدد من المصادر والمراجع التاريخية والجغرافية العربية والأجنبية ؛ كذلك طبيعة الإنسان فيها والمتسم بعدد من الخصوصيات التي جعلته بالطبيعة والفطرة مقاوما يقظا يحرص على أرضه المنبسطة والمشرعة على كافة الاتجاهات والاحتمالات المفاجئة، فقد مر من الشاوية القرطاجيون في وقت مبكر (5 ق. م) دون أن يستطيعوا الاستقرار والاستمرار بها، شأن الرومانيين (سنة 42 م) الذين لم يقدروا على إخضاع المنطقة تحت نفوذهم، رغم البعثات الرحلية الاستكشافية السابقة التي وصفت الشاوية من نواحيها الخاصة والعامة مع حنون القرطاجني (5 . ق.م) وهيرودوت الاغريقي، ثم بولبيوس الروماني (2 ق. م) وبعده بطوليمايوس.

بعد ذلك، سيسترسخ عنصر المقاومة في تامسنا/الشاوية مع القسم الاسلامي الذي كان سبيلا لتحول هام وتاريخي بالمنطقة، لكن تعسفات بعض العمال والحكام الذين كانوا يمارسون الابتزاز والقهر فجّر غضبا تحول إلى تمرد متواصل انتهى بتكون كيان سياسي مستقل.

ومع بروز الإمارة البورغواطية (2 هـ) وخلال أربعة قرون باذخة وغامضة حتى الان سياسيا ودينيا وأثريا فقد عرفت «الشاوية» تحولات أخرى حيث كان العنصر البربري يؤسس لتاريخه المليء بالمقاومة والصراع إلى أن جاء

الموحدون الذين راهنوا على حروب انتحارية بالمنطقة انتهت بالقضاء على البورغواطيين (6 هـ) بعد جرائم اعتمدت البطش والقتل الجماعي وعمليات إحراق المزروعات والأراضي والمنازل، مما جعل المنطقة تعرف خرابا معماريا وسكانيا إلى أن جاء يعقوب المنصور الموحدي الذي «استجلب» بعض القبائل العربية الهلالية، محاولة منه سد الفراغ وتهجين الساكنة، وبالفعل سينصهر العنصر العربي مع العنصر البربري في وحدة مازالت ملامحها بارزة حتى الآن، وأعطى لقيم الصراع بعدا آخر ؛ ذلك أن الشاوية ستصبح مرة أخرى قلعة دائمة لانطلاق المجاهدين خصوصا وأن الاستعمار البرتغالي والاسباني لم يستطع الاستحواذ على بلاد الشاوية رغم المحاولات المتعددة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر (1468 و 1575 م). وربما قاد هذا الوضع التاريخي المؤرخين الذين أوردوا شذرات متفرقة عن تامسنا/الشاوية أن يشيروا في كل مرة إلى عنصري المقاومة والتمرد وكيف أن الشاوية ا **ستمرت مدة قرنين كاملين في حروب متواصلة** إضافة إلى كونها كانت تضم مئات الآلاف من المحاربين والفرسان.. ذخيرة تتمنى على الدوام، بموازاة مع ما تقدمه من شهداء في مجتمع تنصهر فيه التناقضات كلها، الإيجابي منها والسلبي.

داخل محطات التصدي الشعبي العفوي والمنظم منذ ما قبل التاريخ إلى الفتح الاسلامي إلى الأربعة قرون الجميلة والقاسية في العهد البورغواطي، ثم مع الموحدين والحلقة الساخنة في مواجهة تحرشات الأجنبي... داخل هذه المحطات المترابطة كانت الهجرات هي القاعدة وسط استثناءات الاستقرار، ثم التمازج بين العناصر المحلية البربرية والعناصر القبلية الوافدة الذي أعطى للوجود الشاوي حضورا مفرطا في الواقعية والخيال. حيث ستعرف الشاوية سلاسل متنوعة من الأحداث والأوعاء إلى الآن : منذ الادعاء الخارق من طرف **صالح بن طريف** البورغواطي للنبوة المزعومة التي تشكل واقعا كاملا من

الاولياء والمتمردين والطامعين في اعتلاء عرش الشاوية، وأيضا من الدجالين وأنصاف الأنبياء الحالمين ومن الشهداء الذين استشهدوا بإيمانهم بأن الشهادة حق واجب. ومنذ السنوات المتكومة خلال قرون لا نعرف عنها شيئا ولم نجد فيها مذكرات تشفي بعض الغليل.

وقد ولدّت كل هذه المتناقضات ـ التي هي مسار حركي ضروري ـ ثقافات هامة امتزج فيها ـ شأن الشعوب الأزلية ـ المحلي الملحمي بالقيم الكبيرة منذ صالح بن طريف إلى أول قائد شاوي استشهد وفي قلبه وفكره حلم كبير لن يبلى إلى **القرشي بن الرغاي والأحمر بن منصور** ولائحة غير محدودة مطلقا.

ثورة الاعشاش

التأريخ للتحولات الكبرى بالشاوية جزء رئيسي من عموم الطفرات الأساسية في تاريخ المغرب ؛ فمنذ القرن السادس عشر بدأت الاشارات الدالة لطموحات الأوربيين، خصوصا بعد اكتشاف أمريكا والانتباه المتوحش للدول غير المسيحية المحيطة، فاستمر الترقب والتقارير الداعية إلى استعمار المغرب منذ سفارة الجاسوسين خورخي دي هنين (1603 ـ 1613) إلى سفارة دومينكو دي باديا (علي باي) (1803 ـ 1807)، وسيعترف المغرب لفرنسا (1767 م) ببعض الامتيازات التي تخص رعاية القناصل لخدمهم والكتاب الموظفين والمترجمين العاملين معهم من المغاربة، وقد كان هذا التنازل إشارة واضحة على بداية مسلسل التنازلات أمام الطموحات الممهدة للاستعمار، وعلامة على ضعف المخزن ـ الدولة الذي لم يعد أمامه سوى الحفاظ على وجوده في جو من المضاربات وغلاء المعيشة وارتفاع الأسعار وغياب بعض المؤن الغذائية الأساسية ؛ ثم المجاعات والأوبئة الكاسحة، مما سبب في تسلط أعوان المخزن من قواد وحاكمين، فكانت ثلاث معاهدات أخرى للإمتياز الأجنبي مع انجلترا واسبانيا وفرنسا (1856 ـ 1861 ـ 1863 م)، الأمر الذي قاد

إلى سنة 1880 حيث ستتخذ الحماية صبغة قانونية باتفاقية مدريد، وسيادة المخالطة والحماية كوسيلتين أخيرتين لفرض الاستعمار على المغرب كله.

وإذا كان التاجر الأجنبي، من قبل، ممنوعا من دخول الأسواق المغربية ومن شراء المنتجات، فإن أسلوب المخالطة باعتبارها مشاركة الأجنبي للفلاح المغربي في ملكياته، والحماية وخطرها المباشر، قد عجلا بتعبيد الطريق للاستعمار.

وقد تجلت خطورة المخالطة والحماية، بالإضافة إلى سلبيات عدة، في إغراق المغاربة في ديون كثيرة - مخطط لها - بفوائد ربوية هددت رسوم ملكية الأرض والإستقرار العام أمام ضعف المخزن وتراجعه عن التصدي لما يقع من تجاوزات تمس بالهوية وبالكيان، الشيء الذي جعل العديد من القبائل بالشاوية تعرف تضررا بليغا وبينا استفاد منه بعض الأجانب بشكل غير مباشر، وبعض السماسرة والشيوخ والقواد بشكل مباشر.

وأمام هذه العوامل وغيرها كانت التطورات تسير في اتجاه متصاعد في غياب الدولة وشللها وتكاثر كلف المخزن وجباياته ودسائس الطامعين والأزمات الطبيعية، مما حدا بالأجانب عبر عملائهم وسماسرتهم من جهة، وعبر بعض أعوان المخزن وممثليهم من جهة ثانية، إلى بث جو التفرقة ونشر الخصومات المفتعلة بين القبائل بقصد إلهائهم وكسر شوكاتهم في صراعات جانبية تعطيهم مبررات للتدخل.

في سنة 1894 ثلاثة من المغاربة قتلوا ألمانيا تجاوز حدود الأدب بسوء أخلاقه وتعجرفه، فعمد المخزن من خلال ممثله القائد أحمد بن العربي إلى إعدام عبد القادر باعتباره القاتل، والإبقاء على بوشعيب والوصيف امبارك في السجن مخلدين فيه لأنهما حضرا معه عملية القتل.

وقد كان لهذا الحدث رمزية بعيدة تكشف عن الضغوطات والتدخل الأجنبي في سير الأمور السياسية بالمغرب، الأمر الذي دفع قبائل الشاوية إلى

رفض هذا الأسلوب ومطالبة المخزن وبشدة، بإطلاق سراح المسجونين، والتخلي عن كل متابعة سببها ديون أجنبية ؛ وللمزيد من الضغط فقد تمردت بعض القبائل وأصبحت رافضة لهذا الوقع الذي ينسحب من تحت أقدام المغاربة بشكل سريع، فتحركت جيوش المخزن في اتجاهات كثيرة لإخماد الانتفاضات الشعبية، وضمنها ثورة الاعشاش - أولاد امحمد بقبائل امزاب، والتي ستعرف قدوم «باحماد» الصدر الأعظم آنذاك، سنة 1897 م ومذبحته الشهيرة في حق الاعشاش العزل، مخلفا آلاف الضحايا الأبرياء في حدث شنيع، في اللحظة نفسها التي كان فيها باحماد وسيطا لزهو المخزن ونشاطه كما تشير إلى ذلك الوثائق الرسمية.

إثر هذه المذبحة التي كانت من أكبر المذابح في حق الشاوية، أطلق الصدر الأعظم أيدي القواد الباطشة في القبائل للمزيد من الابتزاز وجمع الأموال من غير وجه حق... مما سيولد انفجارات شعبية مشرقة.

الحب في زمن الثورات

الملابسات التاريخية التي سبقت سنة 1903 والضغط الذي مورس بعنف وهمجية على الفلاحين كان فتيلا ساخنا لانفجار **ثورات شعبية** ضد القواد وأعوان المخزن وضد المحميين والمخالطين والسماسرة وعيون الأجانب و"المجذمة" ؛ كانت ثورات عفوية قبل أن تنتظم، ولم تكن «سيبة» كما حاول ويحاول العديد أن يتداولها ويصفها بها، حيث هاجم الفلاحون القصبات رمز الاستبداد واستعادوا منها ما سرق وأخذ منهم غصبا... ولأنها ثورة شعبية ملؤها حب سام للوطن والحرية فقد كان لها زعماء انتخبتهم القبائل وفرضوا بالاتفاق والتشاور **والتداول** نظاما على الجميع، حيث تتم المعاقبة الصارمة ضد كل من يرتكب جرما أو سرقة أثناء المقاومة.

كما اتفقت الجموع الثائرة باسم الثوار الذين أسندت إليهم مهام القيادة، على عدم الإعتداء على أحد دون سبب وجيه يستحق ذلك، وكذلك إنهاء التقاتل

بين القبائل، وشروط أخرى تعمل على تحطيم دعائم الاستبداد والتصدي للتسرب الأجنبي.

إنها معالم المقاومة الوطنية الحقيقية والتصدي الشعبي للانحراف، والتي أفرزت زعماء من طينة القرشي بن الرغاي، الأحمر بن منصور، الحاج محمد، الشيخ البوعزاوي والعشرات ممن سيكون لهم دور بارز في السنوات المحرقةالآتية. معالم انتفاضة يحركها عاملان : الديني والوطني برماة وفرسان وفقهاء وفلاحين أميين أبانوا عن حس وطني مبكر وكشفوا ضعف المخزن، كما فضحوا النوايا الاستعمارية للأجانب ومناوراتهم خصوصا وقد تعرض نظام الحماية والمخالطة للمضايقة وقوطع الأوربيون وتراجع نفوذ المتعاونين معهم من التجار والسماسرة.

انتفاضة 1907

القروض التي تسلمها المخزن المغربي من فرنسا سنة 1904 أعطت للفرنسيين حق الاشراف على الجمارك واحتكار المال، كما كان مؤتمر الجزيرة الخضراء عام 1906 الضربة الموجعة لاستقرار المغرب، لأنه حصل - بالتعبير المشهور - على قليل من المال وكثير من التدخل، حيث كثرت التحرشات والدسائس مما خدش مشاعر المغاربة بالشاوية خصوصا مع احتلال وجدة (1906)، دفع بالمجاهدين في الشاوية وعلى رأسهم الشيخ المرابط البوعزاوي إلى تحريض الفلاحين ودعوتهم للجهاد، وهو ما كان يدعو إليه الشيخ ماء العينين في جولته الموسعة الداعية إلى الجهاد ضد الكفار.

وقد كانت الأشغال التي افتتحها المراقبون الفرنسيون باسم "الكومبانية المغربية" في ميناء الدار البيضاء بمد خط حديدي وقاطرة لجلب الحجارة وانتهاك ونبش حرمة المقبرة الإسلامية المجاورة، بالإضافة إلى جلوس المراقب الفرنسي بالديوانة... هي آخر نقطة في كأس بلغ فيضه، الشيء الذي نتتبعه من خلال بعض التفاصيل المختزلة للأحداث :

الأحد 28 يوليوز 1907 : قدوم وفد عن بعض قبائل الشاوية إلى الدار البيضاء للاتصال بقائدها السيد بوبكر بوزيد مطالبين إياه على وجه الاستعجال بطرد المراقبين الفرنسيين من الديوانة، والايقاف الفوري لأشغال ميناء الدار البيضاء وتخريب السكة الحديدية.

وقد قيل بأنه لن يستقبلهم ثم تماطل، وقيل إنه التقاهم وقال لهم امهلوني إلى يوم 30 يوليوز متحيرا في أمره ؛ أو قال لهم أن الأمر برمته من اختصاص المخزن !!

الاثنين 29 يوليوز 1907 : اجتماعات داخل القبائل، واستمرار الترقب والانتظار مع التأهب ورص الصفوف والاستعداد من خلال حملات التنظيم والإخبار.

الثلاثاء 30 يوليوز 1907 : قائد مدينة الدار البيضاء بوبكر بن بوزيد يستدعي عددا من قناصل الدول الأجنبية والشخصيات السياسية والاقتصادية والادارية ليتشاور معهم في الأمور المستجدة، لكن قنصل فرنسا وبخه مهددا إياه بأسلوب واضح.

- في الساعة 11.00 صباحا : محمد بن العربي البراح ينادي بمقاطعة الأجانب، ويهدد من لا يمتثل للإجماع الشعبي حول الوحدة الوطنية ويحذر الفرنسيين داعيا إياهم بمغادرة الوطن.

- عشية نفس اليوم تنطلق حركة الانتفاضة والاحتجاج بقتل تسعة أجانب عمال في القاطرة، وتخريب السكة الحديدية والقاطرة، وطرد المراقب الفرنسي.

وفي نفس هذا اليوم، اجتماع عدد من الزعماء الثوار في أولاد زيان، مديونة، المذاكرة، المزامزة، أولاد سعيد، أولاد سيدي بندود، أولاد بوزيري... في تجمعات خطابية هامة... بعدها دخل زعماء الانتفاضة على خيولهم وسيطروا على الأوضاع بالدار البيضاء حيث أجلسوا مراقبا مغربيا بباب الديوانة لاستخلاص واجب الخروج من التجار اليهود.

الأربعاء 31 يوليوز 1907 : السيطرة على الأوضاع بالدار البيضاء من طرف الثوار، وانتشار الخبر بكل أطراف الشاوية التي استجابت للنداء وتأهبت لأي مستجدات.

وفي هذا اليوم كتبت رسالة سيتم توجيهها إلى مجموع القبائل باسمائها لتنفيذ ما جاء فيها، مما يفيد الحس الوطني والتنظيم المحكم للانتفاضة.

تقول الرسالة :

«الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه، إخواننا قبيلة أولاد حريز كافة رعاكم الله والسلام عليكم وبركاته من خير مولانا نصره الله وبعد، فغير خاف عليكم أننا كنا تشوفنا لما ظهر وبان بثغر الدار البيضاء ومرساها من جهة بابور البر فيها، ونزول الروم بمرستها كذلك بعد أن ينصر الله أمرا مفعولا على يد بعض رجال الاسلام، وقتلوا أصحاب البابور تسعة، وفسد عمله كله وخرج الكافر منها الذي كان بالمرسة، وكذلك دائرة الفرنسيس كلها وتجمع من حضر من قبيلة الشاوية وحصل الرفود على الثغر المذكور وغير ذلك من الطرقات والصادر والوارد في قبيلة الشاوية كلها تعين أعلامكم لتكونوا على بال وتتلاقوا مع بعضكم البعض وتعلموا جيرانكم من إخواننا أولاد أبورزك بأن يكونوا ببال وتقدموا للجمع يوم الاثنين الآتية في الصبيح ليقع الرفود بين القبايل وتبرحوا في الاسواق وتكونوا على بال بحيث إذا ظهر شيء في البحر وتكونوا فيه يدا واحدة، ومن وقع شيء في أرضه يحرق دوائره وأن الشاوية وما أضيف إليها يد واحدة، وبه الأعلام، وعلى الاخوة السلام في 20 جمادى الثانية 1325 (31 يوليوز 1907).

أعيان قبيلة الشاوية كافة آمنهم الله وتوجهوا بهذه إلى إخواننا أولاد أبورزك.

الخميس 1 غشت 1907 : فرقة عسكرية تابعة للمولى الأمين تعزف الموسيقى لنائب القنصل الفرنسي وهو يصعد إلى البارجة الحربية

غاليلي التي رست صبيحة هذا اليوم بميناء الدار البيضاء محملة بإنذار للمغاربة.

وهي نفس الفترة التي كانت فيها الآلة الاستعمارية تخطط لسحق الفلاحين الثوار، عبر مداولات وتخطيطات ودسائس وتحالفات مشبوهة امتدت خلال أيام الجمعة 2 والسبت 3 والأحد 4، ستتفق القنصلية الفرنسية مع المولى الأمين بترك باب المرسى مفتوحا في وجه المؤامرة الكبيرة على أهل الشاوية والمغرب عامة.

الاثنين 5 غشت 1907 : الخامسة صباحا من صيف غشت الصاهد، 66 بحارا فرنسيا من القتلة دخلوا من باب المرسى الذي وجدوه مفتوحا بالأمر... ومع وضع أرجلهم على الأرض المغربية شرعوا في قتل كل من وجدوه في طريقهم سواء من مخازنية أو سكان عزل، فيما بدأت البارجة غاليلي وبعدها البارجة دي شايلا بقصف المدينة بقذائف المنيليت الاشتعالية والقنابل التي التهمت الأحياء الشعبية خصوصا حي التناكر وقتلت الساكنة التي كانت آمنة وعزلاء.

واستمر القذف خلال يومي 6 و7 غشت مع احتدام الصراع وكثرة القتلى ودخول فرسان الشاوية للانتقام من الغزاة.

الأربعاء 7 غشت 1907 : البارجتان البحريتان تواصلان القصف الوحشي تمهيدا لنزول جيش الاحتلال بقيادة الجنرال درود رفقة 300 جندي، لكن فضيحة يوم سابع غشت كانت هي المؤامرة الثانية بعد باب المرسى وتجلت في واقعة السور الجديد حيث احتمت أفواج مؤلفة من المغاربة الفارين العزل داخل السور الجديد في حماية وأمان المولى الأمين... لكن الذي وقع أنهم احترقوا جميعهم بالغدر والدسيسة فماتوا شهداء انضافوا إلى من قتلوا في اليومين السابقين.

وإذا كان سكان الدار البيضاء في تلك اللحظة لا يتجاوز 30 ألف نسمة

فإن ما بين 6000 و15000 ألف قتيل استشهدوا، وفر معظم المتبقين إلى النواحي، كما اعتقل العديد من الثوار والمجاهدين الذين حوكم بعضهم بالاعدام الفوري والبعض الآخر بالسجن ووضع ثوار اخرون في المعتقلات دون محاكمة ومن غير أن يعرف مصيرهم حتى الآن.

كل هذا زاد من غضب الفلاحين بدليل أن الجنرال الفرنسي ظل محاصرا في الدار البيضاء ومديونة لمدة ستة أشهر إلى أن تم تغييره بالجنرال داماد.

إن الحصيلة التي سيحملها معه درود في شكل هزائم وخيبات بدأت تجلياتها في معارك شهد الأعداء أولا عبر تقارير المخبرين أو التقارير العسكرية أو الكتابات الصحفية في ذلك الوقت أنها بطولية أبانت عن قتالية لدى الفرسان المغاربة وقدرة خارقة في التكتيك الحربي والإقدام ليل نهار، ففي يوم عاشر وثامن عشر غشت أمام اندحار قواته أمام فرسان الشاوية بقيادة أولاد بوزيري بعث درود برسائل استنجاد يطالب فيها بالذخيرة لمعاقبة أهل بلاد الشاوية.

ولعل التضامن الوطني مع هذا التصدي الشعبي للاستعمار الفرنسي وكل أذنابه سيبرز في اجتماع جمع أزيد من ألفي مجاهد في منطقة تادارت القريبة من الدار البيضاء وتجمعات أخرى مستنفرة فضلا عن إمدادات المناطق الأخرى من دكالة والرحامنة وبني مسكين وزايان وقلعة السراغنة وتافيلالت.

لذلك كانت معارك دار بوعزة (28 غشت) ومعركة سيدي مومن (3 شتنبر) و(19 أكتوبر) دروسا ساخنة ستعرف معها الأحداث عدة تطورات خصوصا فيما يتعلق بالرسالة التي وجهها أهل الشاوية إلى المولى عبد الحفيظ وحثه على إعلان الجهاد حفاظا على أعراض المسلمين وحريتهم وأملاكهم، الرسالة التي دونها الفقيهان البجاج وبن عزوز يوم 11 غشت، وحملها إلى مراكش الزيراوي والعفيفي سيكون الرد عليها خروج أول محلة حفيظية للجهاد يوم 16

شتنبر بقيادة محمد ولد رشيد الفيلالي والتي ستخيم بسيدي عيسى قرب مديونة مقابل تحرك المحلة العزيزية بقيادة بن بوشتى البغدادي في أواخر أكتوبر وانهزامها بشكل فظيع ليلة 24 نونبر.

كل هذه الهزائم التي مني بها الفرنسيون بأسلحتهم المتطورة وبثلاثين برقية أرسلتها الحكومة الفرنسية للجنرال تحثه فيها على التقدم بأية طريقة لاستكمال احتلال الشاوية وتقليم أظافر أهلها خبر دون جدوى فيتم عزل الجنرال الذي أسندت إليه مهمة قيادة الانزال الفرنسي في ثالث غشت 1907 اعتبارا لكونه دخل الجندية سنة 1872 وقد خبر بعدها عدة حملات عسكرية بالطونكان والداهومي (1893 ـ 1894) ثم حملة الصين سنة 1900 ووهران.

تسلم الجنرال داماد القيادة يوم خامس يناير 1908، وقد جاء لينفذ سياسة الاستعمار الفرنسي بأية وسيلة، فهو صاحب المنطاد الذي استعمله في عمليات التحرك والاستشكاف، وصاحب القتل بدون تمييز للأطفال والنساء والشيوخ وكل المدنيين وحرق الأراضي وتسميم المواشي ومياه الأنهار والآبار... إنه محارب قذر.

وفي المعارك التي سيقودها، خصوصا، يوم 15 يناير 1908 في معركة سطات المشهورة ستبرز بطولات المجاهدين الشهداء وعلى رأسهم القرشي بن الرغاي الذي سيستشهد في ذلك اليوم استشهاد الأبطال التاريخيين. بعدها معركة عين مكون (24 يناير) وهزيمة المعسكر الفرنسي أمام حركات المذاكرة بقيادة الأحمر بن منصور ومجموعة كبيرة المجاهدين خلفه يحاربون بشكل أشد ضراوة.

في تراجعه، قصد الجنرال دماد المزامزة/سطات في معركتين فاصلتين الأولى بلقصابي (2 فبراير) ذاق فيها هزيمة موقعة، والثانية بسطات (6 فبراير) مارس كل عدوانيته من قتل وبطش وتخريب. لكن معركة برابح والسدرة، ومعركة فخفاخة (16 ـ 17 ـ 18 و 29 فبراير 1908) لقنت المذاكرة بقيادة الأحمر بن

منصور الليث الصهور مول لعلام، دروسا أخرى للجنرال وقواته وهي تسقط وتتراجع وتفر مهزومة.

بعد ذلك جاءت مذابح داماد بمكارطو (8 مارس) وسيدي الغنيمي (15 مارس) ثم بإيحاء من الجنرال ليوطي شرع في إحداث ملحقات عسكرية لإنهاء المقاومة، فعرف أن أهل الشاوية لا يستسلمون بالسهولة التي كان يتخيلها وهو يتسلم القيادة يوم خامس يناير، ذلك أن 29 مارس 1908 بسيدي عسيلة، المذاكرة وقبائل أخرى داعمة سيسقطون اثنين من كبار قادة المعسكر الفرنسي ولهما سلفستر وبوشرون.

كما كان أهل المزامزة وبجانبهم أولاد سعيد، أولاد سيدي بنداود، وأولاد بوزيري وقبائل أخرى بقيادة الشيخ البوعزاوي ومجاهدين أفذاذ يدافعون ضد التقدم الوحشي للفرنسيين في معركة سطات الثالثة (6 أبريل) وهي الفترة التي خابت فيها آمال رجالات الشاوية بعد انتظار طويل وتشويقي لمجيء محلة المولى عبد الحفيظ... هذا الأخير الذي رحل إلى فاس بحثا عن حل سلمي بعدما كانت خطاباته المتبادلة مع أهل الشاوية كلها أمل ودعوة إلى الجهاد والقتالية.

معارك الغابة (سيدي كامل، صخرة عبو، بريغيت، واد العطش) ومعركة بيرالورد منذ 11 ماي وخصوصا في الخامس عشر والسادس عشر منه هي آخر المعارك الكبرى في سلسلة ملحمة قوية أبانت عن مجاهدين كبار وشهداء يحملون قيما كبيرة وأحلاما أكبر.

إن هذه الحرب القاهرة خلال سنتي 1907 و1908 أضاءت عن وجهين أساسيين في كل المراحل والمعارك : الوجه الأول هو بشاعة الحقد الذي يكنه الاستعمار الفرنسي للشعب المغربي ولفلاحيه ومجاهديه حيث استعمل كل الوسائل المباحة وغير المباحة في قتل وحرق الأطفال والشيوخ والمزروعات والبهائم من أجل اختراق سهول الشاوية.

الوجه الثاني هو قيمة التضحية التي بلغت أوجها، والتضامن اللامشروط بالفعل بين كافة المقاومين والفرسان، ففي هذه المعارك البطولية والتي هي مخلدة في ذاكرة القبائل ما زالت أسماء المقاومين المحليين أو رجالات المقاومة من مناطق مغربية عديدة، ومن الأطلس بقيادة موحا وسعيد وموحا وحمو الزياني...

إن انتفاضة الشاوية إثر حوادث الدار البيضاء 1907 والمعارك التي شهدتها السهول على مدار سنتين كاملتين هي اختزال لمراحل شتى أعطت للمغرب فرصة الاصطدام المباشر والانفتاح على التحولات العالمية التي ابتدأت منذ القرن الثامن عشر، ومعاودة الالتحام بقيمنا في الصراع والكفاح ضد كل من يريد سلبنا هويتنا وكرامتنا وأرضنا وأحلامنا.

لذلك ومنذ 1907 إلى سنة 1956 ستتواصل الانتفاضة والمقاومة من داخل الشاوية وخارجها بأساليب متعددة وبوعي وطني يسجد إجلالا، وباستمرار، لجميع أولئك الذين استشهدوا من الثوار الفلاحين ومن الأطفال والنساء والشيوخ في معارك الشرف في مطلع هذا القرن الذي لا يتذكره إلا الأوفياء الخلصاء.

اعتمد هذا البحث على المراجع التالية:

هاشم المعروفي : عبير الزهور في تاريخ الدار البيضاء وما أضيف إليها من أخبار أنفا والشاوية عبر العصور، (ج. 1) مطبعة النجاح، الدار البيضاء، 1987.

علال الخديمي : التدخل الأجنبي والمقاومة بالمغرب، حادثة الدار البيضاء واحتلال الشاوية، الدار البيضاء، افريقيا الشرق، ط. 2 - 1994.

أحمد زيادي : انتفاضة الشاوية سنة 1907، الدار البيضاء، منشورات عيون المقالات، (ط. 1) 1986.

Général D'amade (Rapport du) : Compagne de 1908 - 1909 en Chaouia. Paris, Lib. Militaire, 1911.

انتفاضة الشاوية
بين الاحتلال الفرنسي
والمخزن والقبائل

نور الدين فردي

عرفت منطقة الشاوية مجموعة من التحولات خلال القرن 19 ارتبطت بالتحولات التي عرفها المغرب. ففي عهد المولى سليمان هزمت قبائل الشاوية جيش السلطان تحت قيادة المولى الطيب بن محمد لكنهم فيما بعد قاموا بإرسال وفود إلى السلطان الذي عين ابن عمه وصهره المولى عبد المالك بن ادريس الذي استبد بالأمور لنفسه وقام بثورة ضد السلطان وأخذ البيعة لنفسه من بعض أعيان الشاوية، لكن المولى سليمان قام بطرده من الشاوية بدعم من سكانها[1]. وفي عهد المولى عبد الرحمان تولى أمور تامسنا محمد بن الطيب لكنه تعامل مع السكان بقسوة وبالغ في تعسفاته فتعددت الثورات ضده، وخلال هذه الفترة قام السلطان بتقسيم الشاوية بين عدة قواد[2]، ورغم هذه الاجراءات الادارية حدثت مجموعة

1 ـ الناصري، الاستقصا (ج. 8)، ص. 98 ـ 99، دار الكتاب، البيضاء 1956.

2 ـ هاشم المعروفي، عبير الزهور...، ج. ا، ص. 22 ـ 1987.

من الثورات، واستمرت هذه الوضعية بين خضوع القبائل ومواجهتها لتعسفات ممثلي المخزن خلال عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان والمولى الحسن الأول. ورغم ما سبقت الإشارة إليه فإن قبائل الشاوية ظلت تعتبر من قبائل الصلاح حيث كانت تقوم بطاعة الأوامر في القيام بالواجبات وأداء الكلف المخزنية[3].

وفي أواخر القرن 19 وبداية القرن 20 تزايدت حدة الصراع بين ممثلي المخزن وقبائل الشاوية وقد ساهم التسرب الأجنبي عبر العديد من الأوفاق والمعاهدات في حدة هذا الصراع حيث ازدادت الثورات بتزايد الحماية والمخالطة التي ساهمت في خلخلة البنيات الاجتماعية والاقتصادية[4].

وفيما بين 1903 و1907 عرفت الشاوية مجموعة من الانتفاضات ضد قواد المخزن، وقام السكان بتخريب العديد من القصبات وهذا ما يعبر عن وعي لدى السكان ويوضح أن الانتفاضات كانت موجهة ضد تعسفات بعض ممثلي المخزن، وقد قام بهذه الانتفاضات مجموعة من أعيان القبائل (القرشي بن الرغاي أخ قائد أولاد سيدي بن داود...) وأسفرت هذه الانتفاضات عن تكوين وعي لدى القبائل بضرورة الاعتماد على نفسها في مواجهة جميع أشكال التعسفات خصوصا بعد أن أصبح المخزن عاجزا أمام القوى الأجنبية مستسلما لشروطها فيما يخص تعويض الخسائر ومعاقبة السكان الذين تقدم بهم شكاوي من قبل الأجانب والمحميين. وقد أبرزت حادثة قنبلة الدار البيضاء واحتلال الشاوية مدى ضعف المخزن، لذلك فالقبائل كانت متأهبة للقيام برد فعل تمثل في انتفاضة أو ثورة شعبية أو مقاومة أو جهاد ضد الكفار.

3 - علال الخديمي، مقال في دفاتر الشاوية (الشاوية = التاريخ والمجالد)، 1997، ص. 86.

4 - فردي نور الدين، مقال في دفاتر الشاوية (الشاوية = التاريخ والمجلد)، ص. 102 - 1997.

I ـ احتلال الشاوية والمواقف المختلفة

1 ـ الموقف الفرنسي.

إن احتلال الدار البيضاء والشاوية كان مؤامرة خطط لها الاستعمار الفرنسي مستغلا ضعف المخزن، وإذا ما قمنا بقراءة سريعة خصوصا لفترة ما بعد 1900 يتضح لنا أن احتلال المغرب كان يتطلب فقط تراضي بين الدول الاستعمارية، لذلك بدأت فرنسا استعداداتها لعملية الاحتلال خصوصا بعد مؤتمر الجزيرة الخضراء (1906) الذي اتضح من خلاله أن مصير المغرب قد حدد، وبذلك بدأت فرنسا تسابق الزمن لاستعمار المغرب فاستغلت مقتل الدكتور موشان لاحتلال وجدة واستغلت مقتل عمال الشركة الفرنسية المكلفة بأشغال ميناء الدار البيضاء للقيام بإنزال عسكري، ولتنفيذ مخططها قامت فرنسا بمذبحة كبيرة عبر قنبلة الدار البيضاء فيما بين 5 و 8 غشت 1907، وتوضح رسالة بعثها رجال المخزن بالعدوتين (الرباط وسلا) إلى محمد الطريس في متم جمادى II عام 1325 عندما بدأ قنصل فرنسا يهدد العدوتين بنفس مصير الدار البيضاء، وتوضح الرسالة كذلك الوعود الكاذبة التي أعطاها رؤساء الجيش لسكان الدار البيضاء بإعطائهم الأمان ثم قام بقنبلة المدينة ومما جاء في الرسالة «... وكتب قنصل الفرنسيس هنا بما نقف عليه... واجتمعنا مع أعيان البلد... وبعده بيوم وهو أمس تاريخه نزل كبير الفركطة الفرنسوية لدار قنصله ... على عاملي العدوتين وخاطبهم بقوله مادامت البلد في الأمان، ولم يحصل أدنى ضرر للأجانب... فلا يكون إلا الخير حيث أن هذه الأمور هي البداية في الدار البيضاء بعينها حذوا بحذو فقد كان نزل كبير العسكر وأعطى الأمان لجميع الناس وكذلك قنصلهم حتى أمنوا على أنفسهم وضربهم بغتة حسبما أخبر بذلك أهل الرباط وأهل فاس الواردين من ثمة على أسوأ حال...»[5].

ويتضح مما سبق أن موقف فرنسا كان واضحا ويتجلى

5 ـ الرسالة موجودة بوثائق مديرية الوثائق الملكية المحفظة 8 الخاصة بالدار البيضاء.

في احتلال المنطقة مع استعمال القوة لترهيب السكان، وتوضح بعض الكتابات المعاصرة[6]، أن موقف فرنسا يتمثل في احتلال الشاوية بهدف التمهيد لاحتلال المغرب.

2 ـ موقف المخزن

أصبح موقف المخزن ضعيفا منذ أواخر القرن 19 في مواجهته للقوى الاستعمارية لعلمه بنواياها لذلك كان يحاول عدم الاصطدام معها وكان يوجه اللوم لممثليه إذا ما اتخذوا مواقف صارمة وموضوعية تجاه تصرفات الأجانب والمحميين، لأنه كان يعرف أن الدول الاستعمارية تبحث عن أسباب واهية لوضع أقدامها بالمغرب وفيما يخص حادثة الانزال بالدار البيضاء قام ممثلو المخزن بمجموعة من الاجراءات تفاديا لأي اصطدام مع الأجانب وتوضح عدة مراسلات مجهودات المخزن للحفاظ على الأمن الذي اتخذته فرنسا أحد المبررات للانزال، فقد أجاب بو بكر بن بوزيد عامل المدينة في رسالة مطولة الحاج محمد الطريس بتاريخ فاتح ربيع الأنوار عام 1325 يكذب ادعاءات القناصل الأجانب «بلغك أني أخبرت القناصل هنا بأن القبائل حوز هذا الثغر البيضاوي حرسه الله يرمون الضرب عليه... فتعجبت من هذا الجواب الصادر منا... لأن كل بلد في كلفة عاملها وهو الناظر في درء المفاسد... فأجبتهم بنعم وأن العسكر موجود بسلاحه والمخازنية كذلك والله يحفظ الجميع ثم قالوا لي وكذلك الساكنون خارج البلد فأجبتهم بدخولهم للبلد وهو الأولى والأسلم... وإني آخذ بجميع وجوه الحزم والضبط في الاحتياطات بما لا مزيد عليه...»[7] ورغم هذه المجهودات اتسم موقف المخزن أحيانا بسوء التنظيم وهو ما تجلى في عدة مواقف نتيجة للضغط الفرنسي، فقبل الإنزال لم يحصل اتفاق وتنسيق مثلا بين بوبكر بن بوزيد ومولاي الأمين الذي كان مسؤولا عن الأمن بالمنطقة، إضافة

6 ـ يمكن الرجوع إلى كتاب «التدخل الأجنبي والمقاومة بالمغرب ـ حادثة الدار البيضاء واحتلال الشاوية»، علال الخديمي، الطبعة II، 1994.

7 ـ الرسالة موجودة بمديرية الوثائق الملكية المحفظة 8 الخاصة بالدار البيضاء.

إلى ذلك تعرض الجيش المخزني عند الانزال لعملية تقتيل دون أن يقاوم وذلك بسبب غياب موقف واضح من قبل المخزن. ويمكن القول بأن المخزن لم يكن له موقف واحد بل كانت له مواقف إذا ما أخذنا بعين الاعتبار مشاركة المحلة الحفيظية في معارك الشاوية بدعم من مولاي محمد بن الرشيد الذي جاء لتقديم الدعم إلى قبائل الشاوية وشاركت جيوش المحلة تحت قيادة عمر السكتاني في أهم معارك الشاوية خصوصا التي كانت بأراضي المذاكرة[8]. وظل المخزن متشبثا بجلاء القوات الفرنسية عن الشاوية عبر المفاوضات التي جرت بين مولاي عبد الحفيظ وفرنسا فيما بين 1908 و 1911، وكان المخزن يعتقد أنه إذا استجاب لمطالب فرنسا يمكنه الحصول على الجلاء في حين كان موقف فرنسا على النقيض من ذلك.

3 - موقف القبائل

كان المجتمع المغربي مجتمعا قبليا، حيث القبيلة هي المحرك الأساسي للجانب السياسي والاقتصادي والاجتماعي. وكانت قبائل الشاوية تعتبر من قبائل النائبة التي يستنفرها السلطان في حركاته ضد القبائل الأخرى وهي بذلك قبائل مخزنية لكنها كانت تقف في وجه تعسفات بعض ممثلي المخزن كما أشرنا إلى ذلك، وبتزايد الحماية وضعف المخزن في مواجهة تدخلات الأجانب، ومنذ الانزال بالدار البيضاء انتبه الفرنسيون إلى شراسة مقاومة القبائل لذلك قرروا الاتفاق مع المخزن الذي حاول ممثلوه بالدار البيضاء التعاون للمحافظة على الأمن لكن القبائل استمرت في الجهاد[9]. وأكدت المعارك التي دارت بين جيش الاحتلال والقبائل خلال سنوات 1907 و1908 على أن موقف القبائل هو الجهاد للدفاع عن الوطن، وقد حاول الفرنسيون التأثير على هذه القبائل عبر الزوايا خصوصا

8 - علال الخديمي، التدخل الأجنبي والمقاومة بالمغرب، حادثة الدار البيضاء واحتلال الشاوية، ص. 341، الطبعة II، 1994.

9 - نفس المرجع السابق، ص. 289.

الزاوية الشرقاوية حيث اتفقت فرنسا مع المرابط محمد بن داود الشرقاوي لتهدئة القبائل[10]، لكن هذه الخطة فشلت. واتحدت القبائل خلال هذه الفترة وتجاوزت خلافاتها حيث اتفقت على عدم الاقتتال فيما بينها، وإخضاع القصبات للنهب والتخريب، وفرض فدية على الأغنياء، ومسؤولية كل رئيس عن استتباب الأمن بمجموعته[11]. وتكتلت القبائل في مواجهة الاحتلال تحت زعامة بعض المرابطين المحليين كالبوغزاوي الذي جند جميع أتباعه للقيام بالجهاد أو بعض الزعماء الذين كانوا مقدمين للرماية وهي طريقة عسكرية كانت تسهر على تدريب أبناء القبائل عسكريا، وقد ساهمت هذه الطريقة في زرع الوعي بالدفاع عن الأرض والجهاد ضد الكفار وكان من أشهر هؤلاء الزعماء **الأحمر بن منصور والقرشي بن رغاي وولد الحاج أحمد والحاج العربي ولد المذكورية وعلي بن الحمري الزيراوي**... وكان لكل قبيلة مقدم للرماية[12]، وقد ساهم هؤلاء الزعماء في تأطير القبائل ضد الاحتلال العسكري ؛ شاركت جميع القبائل في مقاومة الاحتلال ،غير أن الجيش الفرنسي تمكن من إخضاع القبائل المجاورة للدار البيضاء في البداية مستغلا قوة أسلحته وانبساط التضاريس، في حين استمرت القبائل الأخرى في المقاومة مستغلة المرتفعات والغابات خصوصا قبيلة المذاكرة بزعامة **الأحمر بن منصور** الذي استطاع تحقيق انتصارات مهمة على جيش الاحتلال.

II - مراحل احتلال الشاوية

بمجرد الانزال في الدار البيضاء عقب قنبلة المدينة كان رد فعل القبائل سريعا حيث حاصرت جيش الاحتلال في المدينة. ويمكن تقسيم مراحل احتلال الشاوية إلى مرحلتين :

10 - علال الخديمي، التدخل الأجنبي والمقاومة بالمغرب حادثة الدار البيضاء واحتلال الشاوية، ص. 318، الطبعة II، 1994.

11 - فردي نور الدين، تقديم وترجمة لكتاب الدار البيضاء والشاوية، رسالة جامعية قدمت بكلية الاداب والعلوم الإنسانية، الرباط، يناير 1996، ص. 161، ج. I.

12 - نفس المرجع السابق، ص. 202 - 203، ج. I.

ـ المــرحلة الأولى منذ الانزال إلى بداية شــهــر يناير 1908 وتمـيـزت هذه المرحلة بمحاصرة جيش الاحتلال حيث اقتصر نفوذه على مدينة الدار البيضاء وكان رد فعل القبائل قويا كلما حاول الفرنسيون توسيع نفوذهم، وقام جيش الاحتلال تحت قيادة الجنرال درود بعدة محاولات فاشلة لاختراق دفاع القبائل التي زقامت مراكز تجمعات بكل من مديونة وتيط مليل وتادرت وسيدي حجاج، وقد شاركت جميع قبائل الشاوية في معاركة هذه المرحلة، وفي أواخر شهر سبتمبر وصلت المحلة الحفيظية تحت قيادة محمد الرشيد والقائد بوريال اليموري لتدعم القبائل[13]. واتضح لفرنسا أن استراتجيتها فشلت لذلك اضطرت إلى إحداث تغيير في قيادتها العسكرية حيث تسلم أمور الجيش في الدار البيضاء الجنرال داماد الذي وصل يوم 5 يناير 1908[14]. وعرفت هذه المرحلة حدوث العديد من المعارك خصوصا في شهر غشت 1907[15] (معركة دار بوعزة، معركة سيدي مومن).

ـ المرحلة الثانية (من يناير إلى صيف 1908) تبدأ هذه المرحلة بوصول الجنرال داماد الذي وضع خطة جديدة لإخضاع القبائل وقسم جيشه إلى فيالق، وحدد النقط الاستراتجية التي يجب الاستيلاء عليها (سطات، برشيد...) واستفاد من الامدادات العسكرية التي بعثتها فرنسا ويمكن تقسيم هذه المرحلة إلى مرحلتين، المرحلة الأولى وتميزت بإبراز القبائل لمقاومة عنيفة وتحقيق انتصارات مهة من خلال عدة معارك كمعركة سطات الأولى ومعركة عين مكون ومعركة زاوية المكي ومعركة برابح ومعركة فخفاخة، والمرحلة الثانية التي تميزت باستعمال الجنرال داماد لأساليب لا إنسانية بهدف إخضاع القبائل حيث قام

13 ـ فــردي نور الدين، تقديم وترجمة لكتاب الدار البيضاء والشاوية، رسالة جامعية نوقشت بكلية الاداب والعلوم الإنسانية، الرباط، يناير 1996، ص. 67، ج. ا.

14 ـ نفس المرجع السابق، ج. ا، ص. 165.

15 ـ يمكن الرجوع للتوقف على هذه المعارك إلى كتاب «التدخل الأجنبي والمقاومة بالمغرب ـ حادثة الدار البيضاء واحتلال الشاوية»، الطبعة II، 1994، من ص. 289 إلى ص. 310.

بعملية الأرض المحروقة وقام بعدة مذابح (مذبحة مكارطو ومذبحة سيدي الغنيمي في مارس 1908)[16].

وبعد هذه العمليات اضطرت القبائل للاستسلام لكنها أوضحت لجيش الاحتلال أن المغاربة لا يمكن أن يستسلموا دون مقاومة.

III . الاستراتجية العسكرية والأسلحة

منذ قنبلة الدار البيضاء وحادثة الانزال اتضح أن للفرنسيين استراتيجية عسكرية يعملون على تنفيذها لاحتلال الشاوية، وقد اعتمد جيش الاحتلال على فرق للاستطلاع خصوصا في المرحلة الأولى وكان يعتمد على جيش نظامي مدرب وضباط خريجي المدارس العسكرية والذين خبروا أمور الحرب في العديد من المناطق التي استعمرتها فرنسا، وهذا ما جعل فرنسا تحدو استراتيجية قبل الاقدام على أي عمل عسكري، واعتمد هذا الجيش على عدد كبير من الجنود بلغ 12000 فردا ومدافع (75 سم و80 سم) ورشاشات وتموين كبير[17] ، واستعان في المرحلة الأولى بأربعة سفن حربية (طرادات مدرعة) إضافة إلى سفن حربية إسبانية كما استعان بمنطاد لرصد تحركات القبائل. وغيرت قوات الاحتلال من خططها العسكرية تبعا لمقاومة القبائل، فالخطط التي استعملت في المرحلة الأولى تختلف عن الخطط التي استعملت في المرحلة الثانية، لكن الهدف النهائي كان هو التحكم في سير المعارك لإخضاع القبائل.

أما قبائل الشاوية فكانت مؤطرة كما أشرنا إلى ذلك من قبل طرق الرماية، وكانت الأسلحة المعتمدة لديها تتكون أساسا من البنادق وبعض الأسلحة التي حصلت عليها القبائل في بعض المعارك ضد جيش الاحتلال، وكان جيشها يتكون من الفرسان والمشاة من أبناء القبيلة القادرين على حمل السلاح، وكان لهذا الجيش مهارة قتالية عالية

16 . علال الخديمي، التدخل الأجنبي والمقاومة في المغرب حادثة الدار البيضاء واحتلال الشاوية، من ص. 331 إلى ص. 355، الطبعة II، 1994.

17 . نفس المرجع السابق، ص. 331.

شهد بها ضباط جيش الاحتلال، وكان عدد أفراد الجيش يتزايد ويتناقص حسب إمدادات القبائل، وغالبا ما كان يتراجع عدده خلال فترات الأعمال الفلاحية (حرث، حصاد...)، واستطاع هذا الجيش أن يواجه الاستراتجية العسكرية الفرنسية حيث اعتمد حروبا شبيهة بحرب العصابات ليتجاوز نقص العتاد الحربي، وكان يراقب تحركات الجيش الفرنسي مستغلا معرفته بتضاريس المنطقة، كما كان يفرض أحيانا موقع وتوقيت المعارك حيث أبان هذا الجيش عن قوة قتالية في العديد من المعارك كمعركة فخفاخة في فبراير 1908 التي أظهرت فيها قبيلة المذاكرة تحت قيادة **الأحمر بن منصور** عن تكتيك عسكري فاجأ قوات الاحتلال. وكانت القبائل تهاجم فرسانا ومشاة القوات الأقل في العمق ويقاتلون متراجعين عندما تصل الامدادات وأحيانا يتراجعون بسرعة جارين وراءهم العدو الذي يصطدم بالكمائن[18] . وكان جيش القبائل يعتمد على الامكانيات الذاتية للقبائل، فالأسر هي التي تقوم بشراء الأسلحة والذخائر كما تقوم بتموين الجيش بكل ما يحتاج إليه.

خلاصات

- إن الانزال في الدار البيضاء واحتلال الشاوية يندرج ضمن خطة استعمارية كان الهدف من ورائها احتلال المغرب، وكان اختيار منطقة الشاوية يندرج ضمن مجموعة من الاعتبارات خططت لها فرنسا.

- كان موقف المخزن متذبذبا وضعيفا تجاه الانزال والاحتلال، وهذا يرتبط بالسياسة الاستعمارية التي عملت على إضعاف المخزن منذ القرن 19 حتى يتسنى لها تحقيق الاستعمار.

- ظل المخزن يعتقد أن بإمكانه جلاء القوات الفرنسية عن طريق المحادثات الديبلوماسية، في حين كانت فرنسا تعمل على ربح الوقت من خلال المحادثات لتحقيق مشروعها الاستعماري الذي سيتضح في سنة 1912.

18 ـ علال الخديمي، التدخل الأجنبي والمقاومة بالمغرب حادثة الدار البيضاء واحتلال الشاوية، ص. 341، الطبعة II، 1994.

ـ اتسم موقف القبائل بمواجهة الاحتلال حيث كان لها حدس بأن فرنسا هدفها استعماري بالدرجة الأولى، وعملت مؤسسات مختلفة (القبيلة + طرق الرماية + بعض الزوايا...) على تعبئة السكان وترسيخ الوعي بفترات تاريخية ماضية ساعدت على شراسة المقاومة ضد الاحتلال.

ـ برهنت معارك الشاوية على أن المغاربة وبارتباط مع عدة اعتبارات سيستمرون في المقاومة كلما سمحت لهم الامكانيات القليلة والمتوفرة.

الحمد لله وحده

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

وثيقة للقراءة

قراءة في تقرير فرنسي حول الوضعية السياسية بالشاوية والدار البيضاء في دجنبر 1907

محمد معروف الدفالي

إن الحركات الاجتماعية الجماهيرية في التاريخ، لا يحتفل بها، ويحيي ذكراها، إلا أحفاد وورثة الجماهير، ومن حق الكونفدرالية الديمقراطية للشغل، كفصيل من هؤلاء الأحفاد والورثة إقامة هذه التظاهرة المتعلقة بذكرى احتلال الدار البيضاء، وانتفاضة الشاوية سنة 1907 إنه احتفال ذو حسنتين، أولاهما استحضار الذكرى من أجل التذكر، والاستلهام، والنظر في محطة من تاريخ الشعب المغربي، أحاط بها، ونتج عنها مجموعة من الماجريات، والأحداث، مازالت نتائجها، وبعض أشباهها قائمة إلى اليوم، بل إن دورة القرن قد تنبئ باصطدام جديد أهم

إلى جانب مداخلتي شعيب حليفي ومحمد الفلاح العلوي، شارك الكاتب بهذه المداخلة في المهرجان الذي خلدته الكونفدرالية الديمقراطية للشغل يوم السبت 9 غشت 1999 في محور الذكرى 90 لانتفاضة الدار البيضاء ضد الاستعمار الفرنسي.

ملامحه بادية للعيان، بشكل جديد، ومن نفس مصدر التحدي، أي الغرب. وثاني الحسنتين يتجلى في التقليد الذي ما فتئت الكونفدرالية - في الآونة الأخيرة - ترسخه، عن طريق إقامة تظاهرات ثقافية، تهدف إلى تكريس نوع من جدلية المعرفي والنقابي. وهذا مجهود ستكون له لاريب نتائجه الإيجابية مستقبلا. فلئن كانت المعرفة عامة - ومن بينها المعرفة التاريخية - دون توظيف في الواقع المعيش، مجرد عمل حلزوني، فإن العمل النقابي، دون معرفة وتكوين متكامل، لا يعدو أن يكون مجرد عمل ميكانيكي (آلي)، لا يبرح مكانه، إذ كلاهما يشبه الحركة الدائرية لكلب يريد عض ذيله دون جدوى، ومن هنا لا مناص من تطعيم متبادل يرقى بالعمل النقابي في المجتمع.. ويبدو أن هذا بعض ما توخاه القائمون على هذه التظاهرة.

أيتها الأخوات، أيها الإخوة.

يؤكد موضوع هذه التظاهرة على تحديين : «الاستعمار»، و«العولمة»، وعلى المقارنة بين أوضاع وأحداث مضت عليها تسعون سنة، من خلال نموذج احتلال الفرنسيين لمدينة الدار البيضاء سنة 1907، ورد فعل أهل الشاوية، وبين الأوضاع والتحولات التي يعرفها عالم اليوم، ومدى انتباه المغاربة لها، ولما تحمله من عواصف، وهذا الموضوع يحمل في طياته جزءا من سؤال الموقف من «الحداثة» وتحدياتها. ففي مطلع القرن، وجد المغاربة أنفسهم، وجها لوجه أمام تحدي «الحداثة»، التي جاءت في أعقاب الهجمة الاستعمارية الغربية، واليوم هم كذلك وجها لوجه أمام تطورات هذا التحدي، وما وصل إليه تحت اسم «العولمة» وإذا كان أجدادنا قد رفضوا «الحداثة»، لأنها جاءت مع الاستعمار، وبالتالي سفهوها سلفا، فهم يفهمون الحداثة على مقاسهم، وبنوع من الريبة المضمرة التي يفضحها تناقض الخطاب والممارسة، ذلك أنهم حداثيون في خطابهم وفي الشكليات حتى النخاع، بينما في ممارساتهم العملية، ومخططاتهم يعادون عمق الحداثة، فموقف المسؤولين الآن منها،

يطرح أكثر من سؤال، ويتوجسون خيفة منها، ومما قد تفجره من تطور، يضيع عليهم مصالحهم الخاصة، ويعري سلوكاتهم إزاء الشعب والمجتمع، والمصلحة العامة، وبؤس تخطيطهم، ومجافاتهم للعقلنة، ولا مسايرتهم حتى لما يحملون من شعارات... ولعل إقامة تظاهرات حول الموضوع، تحمل ـ فيما تحمل ـ طريقة من طرق دق الأجراس في آذان من يجب إزاءهم ذلك.

أيتها الأخوات، أيها الإخوة.

سأقتصر في مساهمتي معكم في هذا اللقاء، على متابعة الخطوط العريضة لتقرير وضعه أحد الضباط الفرنسيين هو اليوتنان كولونيل هيو Lieu-tenant - Colonel HUOT حول الوضعية السياسية بالشاوية، في نهاية سنة 1907. ومستهل سنة 1908، أي إثر احتلال الدار البيضاء، ومضمون الأوضاع السياسية في هذا التقرير يعني الموقف من سيطرة الفرنسيين على مدينة الدار البيضاء، واستعدادات أهل الشاوية لاستردادها، ونتائج ذلك.

فكغيره من التقارير الشبيهة، لم يخل التقرير موضوع القراءة من مبطنات، وتضخيم لما اعتبره الفرنسيون، من «مثالب» أهل الشاوية، كالفوضى، وقطع الطرق، والتمرد على سلطة المخزن العزيزي، مقابل تضخيم «مهمة» الفرنسيين، و«رسالتهم» من أجل التهدئة، ونشر الأمن، وإخضاع المنطقة لسلطة المخزن، ليخلص إلى نهاية «سعيدة» صور فيها انتصار الفرنسيين وسقوط قصبة مديونة، وكأنه انتصار «للحق» على «الباطل»، لقد سلك «هيو» في تقريره، طريق اليوميات، وتتبع تحركات أهل الشاوية، خلال شهر دجنبر 1907، خطوة بأخرى، اعتمادا على مصادر متعددة، ومتنوعة من مخبرين، ومسافرين، ومارة من الأهالي وغيرهم، ومن أخبار، وحتى الإشاعات المتداولة، غير أن تحديده لمصدره إزاء آية معلومة، كان يجدد ضمنا، ثقته أو تشككه فيها، مع ميل قصدي، أو لا شعوري إلى ما يخدم مصلحة رؤسائه، ومع ذلك لا يستشف من التقرير استهانة مفضوحة بالخصم وإمكاناته، بل الحذر كان

طاغيا، بشكل تفسره الصعداء التي تنفسها المقرر، بعد سقوط قصبة مديونة، ولجوؤه إلى إتمام تقريره حول بداية شهر يناير 1908، بتقرير آخر وضعه رئيس الاستخبارات في الثالث من نفس الشهر، لم يذخر وسعا في التلميح، والإيحاء بأن سنة 1908 سنة يمن وبركة، على الفرنسيين، وتضخيم عملية «استسلام» بعض قبائل الشاوية، ودخولهم تحت طاعة فرنسا أفواجا، مقدمين الذبائح، طالبين العفو والسماح.

لكن هذا التقرير، رغم حمولته الاستعمارية، لا يخلو - مثل أشباهه - من فوائد، تكشف النقاب ضمنا، عن بعض أسباب الهزيمة، وسقوط قصبة مديونة.

إذا حاولنا تأطير يوميات التقرير، نجد أن أحداثها جرت ضمن وضع عام، بالنسبة للشاوية، أبرز ملامحه، الهجمة الاستعمارية، خصوصا الفرنسية على المغرب، والصراع على السلطة بين المولى عبد العزيز، والمولى عبد الحفيظ، وانحياز أهل الشاوية لهذا الأخير، باعتباره مناصرا للجهاد. ووضع خاص، مترتب عن السابق، أبرز تجلياته، احتلال مدينة الدار البيضاء، ووعي أهل الشاوية بخطورة ذلك الاحتلال، ليس على منطقتهم وحدها، بل على المغرب كله، وكذا تشتت مجهودات جنود قبائل الشاوية، بين محاربة المحلات التابعة للمخزن العزيزي، خاصة محلة «ابن البغدادي»، والتخطيط لمحاربة الفرنسيين قصد استرداد الدار البيضاء.

لقد اهتم التقرير بمحلة «ولد مولاي رشيد»، نسبة إلى قائدها، والتي سميت كذلك «محلة سيدي عيسى»، لأن خيامها كانت مضروبة بطريقة تحيط بحوالي 1500 م شمال قبة سيدي عيسى، وكانت هذه المحلة مكونة من 314 خيمة، موزعة كالتالي :

ولد مولاي رشيد وعسكره	85 خيمة
المزامزة	14 خيمة
البوعزاوي ورجاله	17 خيمة
أولاد سعيد	23 خيمة
أولاد بوزيري	56 خيمة
أولاد سعيد كدانة	11 خيمة
أولاد زيان الدروة	30 خيمة
مديونة	21 خيمة
أولاد حريز	47 خيمة

ويضاف إلى هذا، مجموعة من الوحدات المكونة من متطوعي قبائل أولاد حريز، ومزاب، ودكالة، والرحامنة، ومتوكة، وآيت يمور، وآيت ويرة...

ومن القبائل المجاورة كان يتم نقل الكلأ، والشعير، والتبن إلى المحلة، كما كانت كل قبيلة تستضيف وتغذي عددا غير محدود من المجاهدين، كانت محلة سيدي عيسى مسلحة بشكل جيد، وتصلها الأسلحة والذخيرة من جهات متعددة. وأمام خيمة ولد مولاي رشيد نُصب أحد عشرة مدفعا، أربعة منها محمولة على حاملات، وهي من نفس عيار المدافع الفرنسية.

ويؤكد التقرير أن رؤساء قبائل الشاوية، كانوا حذرين جدا من تسرب أخبار استعداداتهم، وكانوا لا يقبلون شخصا زائدا في اجتماعاتهم، ومداولاتهم، بينما كانت تعقد بين الفينة والأخرى، اجتماعات عامة، لممثلي القبائل، من أمثلتها الاجتماع الذي انعقد بتاريخ 3 دجنبر 1907 ، تحت رئاسة ولد مولاي رشيد، بمساعدة : المزوار، والشريف العلوي من الدار البيضاء، والحاج الحسين من أولاد زيان أمالين الدروة، وولد لحسن، والسي محمد بن موسى، وكذلك البوعزاوي، والشيخ عزيز، ومن القبائل التي حضرت هذا الاجتماع : مزاب، والزيايدة، واولاد بوعزيز، واولاد زيان أمالين الواد،

والمذاكرة، وأمام مجلس رئاسة الاجتماع، تم استعراض ممثلي القبائل، واستعراض مقررات الاجتماع، وعلى رأسها :

1 ـ تأكيد كل القبائل على ولائها لمولاي عبد الحفيظ.

2 ـ تشكيل المذاكرة، وأولاد زيان أمالين الدروة، فرقة واحدة بين دار الميساوي، ودار ولد مينة، وكطة الحيمر.

3 ـ التزام كل قبيلة قبل الوصول المحتمل لمولاي عبد الحفيظ، يوم 6 دجنبر بإرسال 50 فارسا، ترافق ولد مولاي رشيد لاستقبال السلطان الجديد.

4 ـ رحيل المحلة بعد استقبال مولاي عبد الحفيظ، إلى قصبة مديونة، والمرابطة بها.

5 ـ مهاجمة الدار البيضاء، بعد مسيرة تتسلل إثرها فرقة عسكرية، بمحاداة أسوار المدينة، قرابة الليل، ونصب المدافع بكطة الحاج عبد القادر بن بولعلام، والحاج المكي ولد الحاج الطاهر، وبضيعة إيمانويل. ثم اطلاق النار على المدينة، وعلى معسكرات الأوربيين في الظلام، بموازاة تسرب خمسمائة من المشاة، عبر العنق على طول البحر، ومهاجمة عين مازي بواسطة الفرسان. أما باقي القوات فتشكل دائرة تحيط بالمدينة. ومع مطالع النهار يبدأ الهجوم.

ويذكر التقرير أنه بعد اجتماع 3 دجنبر، ومقرراته، عرفت محلة ولد مولاي رشيد، توسعا كبيرا، حيث طلبت مجموعة من القبائل الالتحاق بها، والعسكرة معها، فتضاعفت بذلك الانضمامات، والالتفاف حول الدعوة لمولاي عبد الحفيظ، من جهات متعددة، كما وصل العتاد، والذخيرة، من بعض المدن والقبائل، خاصة مراكش، حملت معها أسلحة متنوعة، من ضمنها قذائف بروسية.

ولتأكيد العلاقة بين محلة ولد مولاي رشيد، والمولى عبد الحفيظ، يجزم صاحب التقرير أن كل تدابير أهل الشاوية، مملاة من طرف هذا الأخير، عبر كل

واحدة من رسائله إليهم، والتي تقول إحداها : «سأكون قريبا، بين ظهرانيكم، اصبروا، وكونوا على أهبة التحرك إثر وصولي، نحو الدار البيضاء. اتحدوا حول هذا الهدف منذ الآن، بالطريقة التي أستطيع بها القيادة دون توقف، ضد النصارى، ولا تحاولوا وحدكم شيئا ضد هؤلاء، واكتفوا كلما وجدتم الفرصة، بمقاومة بوشتى البغدادي، وقبائل زناتة الذين باعوا أنفسهم».

ويتضح من خلال التقرير أن هذه الأوامر، تم احترامها، حيث تكلف المذاكرة بقطع الطريق على الطابور المخزني القادم من الرباط، وتكلف أولاد بوعزيز بمواجهة الجيش المخزني القادم من الجديدة، وهزم أهل الشاوية، المحلة المخزنية التي كان يقودها «ابن بوشتى البغدادي» في أكثر من مكان، فقتلوا، وأسروا، وكانوا يبعثون بعدد من الأسرى، ومن رؤوس القتلى إلى مراكش، كما هاجمت هذه القبائل مرات عدة، القبائل الموالية للمخزن العزيزي، على طول وادي الشراط، بين الصخيرات وبوزنيقة، وكذلك بئر أربعة، وقصبة تمارة.

كان وصول مولاي عبد الحفيظ، إلى قصبة مديونة ضروريا، في عملية تخطيط أهل الشاوية، للهجوم على الدار البيضاء قصد استردادها. وكان الطريق المحتمل أن يسلكه «سلطان الجهاد»، هو الانتقال من مراكش، نحو أسفي، ثم الجديدة، فأزمور مولاي بوشعيب، ثم قصبة مديونة، حيث ينوي الشروع في مفاوضات مع الفرنسيين، لاستقصاء نواياهم، وإنهاء المسألة معهم عند اللزوم، بإرضائهم، شريطة مغادرة الدار البيضاء نهائيا، أو خوض الحرب ضدهم، إذا رفضوا ذلك، على أن تكون تلك الحرب عامة، وجهادية - وحسب التقرير دائما- فقد انتشر بين أهل الشاوية، في بداية شهر دجنبر، خبر خروج المولى عبد الحفيظ من مراكش للالتحاق بهم. فأحدث ذلك فرحة عارمة، لم يكتب لها التحقيق، فالمنتظر لما وصل إلى دكالة في طريقه نحو قصبة مديونة، عاد أدراجه نحو السراغنة لمعاقبتهم، بسبب قتلهم قائدا تم تنصيبه

عليهم من طرفه، ورغم سريان بعض الاشاعات، في أوساط محلة ولد مولاي رشيد، حول أسباب تردد مولاي عبد الحفيظ في الالتحاق بالشاوية، فإن الجميع استمر متفقا إزاء وصوله، في يوم ما لمحلة سيدي عيسى. وحتى لا يتبخر حماس شاوية المحلة، كانوا يقيمون يوميا مباريات الفروسية، بطريقة جعلت صوت البارود يدوي يوميا.

لقد أربك طول الانتظار، وبعض ما صاحبه «محلة سيدي عيسى» وزعزع أركانها، لدرجة أن ولد مولاي رشيد فكر أواسط شهر دجنبر في التراجع بالمحلة نحو سطات، لولا وقوف رجال الشاوية في وجه فكرته. ولا ريب أن الفعفعة التي أصابت أهل الشاوية، مسؤولة ليس على الاندحار، وسقوط قصبة مديونة، فقط، بل على الطريقة التي أحاطت بالهزيمة. فدون أن يشير التقرير إلى معارك فاصلة، ولا إلى مواجهات عسكرية بين المحلة والفرنسيين، انتقل بطريقة شبه مفاجأة، مع بداية شهر يناير 1908، للحديث عن هزيمة محلة ولد مولاي رشيد، وسقوط قصبة مديونة، وتراجع المحلة المبعثرة، المنهكة، نحو برشيد، ثم نحو سطات، ليشق ولد مولاي رشيد بعد ذلك طريقه في اتجاه مراكش. أما المحلة فقد استمرت عند أولاد سعيد، أو عند أولاد سيدي بنداود، وأصبحت تحت إمرة اثنان من أعيان المزامزة، هما الحاج سعيد، وولد عيشوشة، إضافة إلى أحد أعيان أولاد سعيد هو الطالب البوعزاوي. كما أن تركيبتها، أصبحت مكونة من أولاد سعيد، وأولاد بوزيري، والمزامزة، وأولاد سيدي بنداود، وأولاد سيدي بنعيسى.

ويبدو أن تحمس صاحب التقرير لانتصار الفرنسيين، على أهل الشاوية، جعله يتغاضى عن المعارك التي سجلت هزيمة هؤلاء الأخيرين، وكذا الأسباب التي سهلت الهزيمة، وعجلت بها. ومع ذلك فمن بين ثنايا التقرير يمكن وضع الأصبع على بعض تلك الأسباب، وإجمالها كالتالي :

1 ـ تردد مولاي عبد الحفيظ في الالتحاق بأهل الشاوية : وهو تردد ظهر

منذ البداية، واستمر حتى بعد زحف الفرنسيين على سطات، ولم يفد الاستنجاد «بسلطان الجهاد»، ومطلب خروجه شخصيا من مراكش، في أكثر من وصوله مشرع الشعير على وادي أم الربيع. ومن أسباب هذا التردد ـ حسب التقاطات صاحب التقرير ـ : عدم قدرة مولاي عبد الحفيظ على قطع أكثر من ثلاثة مراحل من مراكش، في اتجاه الشاوية، بسبب ثقل وزن المدافع الثلاثة التي كان يحملها جنده معه، وعدم ثقته في بعض القبائل، وشكه في تحولها إلى عدوة، والوضعية المتضعضعة لجنوده بسبب نقص المؤونة والمال، وما ترتب عن ذلك من شكه في إمكانية تخلي هؤلاء الجنود عنه، حال وصوله الشاوية.

2 ـ انتشار الجوع في أوساط محلة سيدي عيسى : فبقدر ما كان عدد القبائل الملتحقة بالمحلة، يتزايد منذ بداية شهر دجنبر، بقدر ما استفحل اليأس في صفوف المحلة، من وصول مولاي عبد الحفيظ، بسبب طول الانتظار، وهذا ما رهن قبائل الشاوية في وضعية اللامواجهة، واللاسلم، مع الفرنسيين، وأثر على نفسيتهم. كما أن المؤن تناقصت مع طول مدة التعسكر، فخيم البؤس على المحلة، وانتشر الجوع بين ظهرانيها، بشكل كان من تجلياته مظاهر متعددة، من بينها تظاهر العسكر أمام خيمة ولد مولاي رشيد مطالبين بما يسد رمقهم.

3 ـ نهب مرتبات الجنود، من طرف قيادة المحلة : يضاف إلى هذا تأخر رواتب جنود المحلة، وانهيار قدرتهم على إعالة أنفسهم بسبب ذلك. والأكثر من هذا أن الرواتب المتأخرة، تعرضت إثر وصولها إلى النهب من طرف ولد مولاي رشيد، وقواد الرحى، إذ يذكر التقرير أن قائد المحلة وأصحابه، لم يسلموا للعساكر من مستحقات ثلاثين يوما، سوى سبعة أيام، ليقتسموا الباقي بينهم، وهو ما نجمت عنه ردود فعل وصلت أصداؤها إلى مراكش، فعين مولاي عبد الحفيظ أمينا لمباشرة مراجعة مستحقات جنود المحلة، إلا أن الأمين المعين للأمر، تسلم رشوة من ولد مولاي رشيد وقياد الرحى، في شكل كمية من

الخمر، راجع على إثرها مكلفه بالمهمة، بأن كل أفراد المحلة توصلوا بمستحقاتهم.

4 ـ استهتار قيادة المحلة : ففي ظروف الاستعداد والتعبئة لمواجهة الفرنسيين، سولت لولد مولاي رشيد، نفسه بأن يتزوج فنظم حفلا بمحلة سيدي عيسى، زف إلى نفسه فيه ابنة الحاج بن الحاج من المذاكرة. وهو إقدام لم يقف عند حد ذاته، بل تجاوز ذلك إلى كون والد الفتاة، كان قد وعد بها أحد أفراد قبيلته هو «علي العربي» الذي اغتاض بسبب التخلي عنه، وجمع حوله بعض المعارضين في إطار حركة شبه تمردية، رغم تدخل جماعة من المذاكرة، ونجاحهم في تهدئتها، لا يمكن استبعاد الآثار السلبية التي تكون قد تركتها في أوساط المحلة.

5 ـ انفراط عقد المحلة : فقد ساهمت كل الأسباب أعلاه في مغادرة عدد من الجنود تباعا للمحلة، وهروبهم منها، بحثا عن الرزق، أو استنكارا لسلوكات وممارسات القيادة، وزاد في تناقص أفراد المحلة، ومتطوعيها أساسا، تزامن الفترة مع موسم الحرث، حيث غادرها عدد كبير من متطوعي القبائل، لحرث الحقول.

وكخلاصة لهذه القراءة، أقول، لاشك أن من بين بعض أهداف تنظيم هذه التظاهرة، الإطلالة على حدث تاريخي مرت عليه أزيد من تسعين سنة، ومن خلاله تتبع طريقة محاولة تحدي أهل الشاوية للاستعمار، ليس من أجل إحياء الذكرى، أو الاحتفال في حد ذاته، ولكن الوضع المشابه الآن، وضرورة تحدي ما اصطلح عليه باسم «العولمة»، أحد أسباب هذا الاستحضار. فهل يمكن تحصيل نتائج من وراء مجرد شعارات تحدي العولمة ؟ لا أعتقد ذلك، من خلال درس هزيمة الأمس. فمجموعة من سلبيات سنة 1907 ، مازالت سارية، بل ربما أكثر استفحالا سنة 1997 ، فالتردد، وعدم الإقدام، إزاء المصالح العامة، مازال سمة رئيسية لدى المسؤولين بمختلف مراتبهم، ودرجاتهم، ومستوياتهم. ونهب

علية القوم أرزاق العامة، بمختلف الطرق والتلاوين، يزداد المستفيدون منه في أساليبه ابتكارا. وجري الخاصة وراء مصالحهم الذاتية ومتعهم، أصبح في غير حاجة إلى ما يحجبه، فهل بمثل هذه السمات، وهؤلاء الرجال، يمكن استيعاب «العولمة».

والإجابة على تحدياتها ؟ إن الجواب بالسلب لا يحتاج إلى أدلة أخرى، رغم أنها مستشرية بوضوح، ونتائج الأمس في مثل أوضاعنا اليوم، لا يمكن إلا أن تكرر نفسها غدا، وبشكل أمر وأنكى، لا تغيب ملامحه الان عن كل ذي بصر وبصيرة.

لقد صاح البوعزاوي في تجمع قبائل الشاوية الآنف الإشارة، بصوت قوي : «إذا تخلى ولد مولاي رشيد مستقبلا عن المواجهة، فأنا الذي سأرفع الراية الحمراء، وأقودكم ضد النصارى»، وهذا يعني أن الزعامات حسنة النية كانت متوفرة ومستعدة لتحمل المسؤولية، إلا أن ظروفا حالت دون بلوغ أهدافها. أما اليوم فلا الزعامات متوفرة، ولا الظروف مساعدة، ومستلزمات الإنقاذ أصبحت مشروطة أكثر من أي وقت مضى. ونفس الشخص، أي البوعزاوي كرر بعد الهزيمة التي كان من أشد المتأثرين بوقوعها «الله يمزق بالمجاعة، ذرية الذين حرثوا وقت الجهاد». وكلامه كان يعني الذين تركوا المحلة صوب الحقول، بينما دلالات «الحرث» اليوم، متعددة، تجتمع في البحث، والجري وراء المصلحة الخاصة، وشيوع الذهنية اللاهثة وراء الذاتي، المتنكرة لكل ما هو وطني، وكل ما هو إنساني...

لاشك أن كلام هذه الخلاصة، نحا في اتجاه نزعة تشاؤم ! لكن الواقع أيها السادة، لا يملي أفضل من ذلك... والسلام عليكم.

نص الرسالة المجهولة

أوراق من تاريخ الشاوية
زمن الاحتلال
أو نار تحت الرماد

عبد الحميد احساين

لم يكد خبر توقيع السلطان على عقد الحماية ينتشر حتى اندلعت نيران "الثورة في سائر الشمال والجنوب والأطلس المتوسط"[1]،وبذل المستعمر، الذي أقلقه تدهور الوضع السياسي، جهدا كبيرا من أجل التحكم في المسار السياسي والعسكري بالمغرب. وإذا كان جيش الاحتلال قد تمكن من القضاء على انتفاضة فاس ومن إرغام المجاهد أحمد الهيبة على الانسحاب من مراكش بعد انهزامه في معركة سيدي بوعثمان، في شتنبر 1912 ، فإن المقاومة لم تنطفئ شعلتها ولم تخمد نارها. فقد وجد الفرنسيون صعوبات جمة في مواجهة الحركات الجهادية ؛ وما زاد الأمر صعوبة، بالنسبة لهم، قيام الحرب العالمية الأولى في صيف 1914 ؛ حيث أرغمتهم هذه الحرب على تعديل خططهم السياسية والعسكرية واستبدال الخطة العسكرية الهجومية بأخرى دفاعية هدفها الأساس حماية المناطق التي

1 ـ علال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، عبد السلام جسوس، طنجة (د.ت.)، ص 105.

احتلت والمحافظة عليها في انتظار تغير الوضع السياسي والعسكري. ولم يكن الاحتلال ساعتها قد امتد إلى المناطق الجبلية، فالسهول والمناطق المنخفضة أو المنبسطة كانت أولى المناطق التي احتلت ؛ والهم الأول الذي شغلهم هو وضع اليد على "المغرب النافع" ودعم سيطرتهم عليه.

ومن بين المناطق التي حظيت باهتمام الضباط العسكريين وخبراء الشؤون الأهلية الفرنسيين، إقليم الشاوية الذي أصبح، نتيجة الموقع الاستراتيجي الذي يتمتع به والتجهيزات والامكانيات التي يتوفر عليها، القاعدة الأساس، ذات الأهمية القصوى من الناحية السياسية والعسكرية، التي ارتكز عليها الوجود الاستعاري في المغرب. وإذا كان خضوع الشاوية للاحتلال الحدث الأكبر والأساس الذي انبنت عليه مجريات الأحداث بعد فشل الانتفاضة، فإن الاحتلال فجر سيلا من الأحداث "الصغرى"، التي لم يكشف النقاب بعد، عن معظمها، رغم أنها تمثل، في نظري، الامتداد الطبيعي للانتفاضة وتقدم الدليل الساطع على أن جمر الانتفاضة لم يبرد. قد تبدو هذه الأحداث للبعض قليلة الأهمية لكنها، في الواقع، تساعدنا على اقتحام مجالات جديدة في البحث التاريخي وتجعلنا نتجاوز "السياسي" لسبر أغوار عوالم أخرى لا تقل عنه إثارة وأهمية.

والرسالتان اللتان نقدمهما هنا، نموذجان مقتبسان من تاريخ وواقع الشاوية زمن الاحتلال، و"حدثان" من "الأحداث الصغرى" التي امتلأ بها سجل الشاوية دون أن تحظى بالعناية اللازمة، رغم أنها قد تساعدنا على تعميق النظر في بعض القضايا المرتبطة بتعامل المغاربة مع الظاهرة الاستعمارية وتتيح لنا الفرصة لاقتحام فضاءات وعوالم جديدة.

1 ـ رسالة "الحاج" إلى "القايد" السطاتي

توصل القايد سي بوبكر بن الحاج المعطي قايد المزامزة، في 7 أكتوبر 1918، برسالة[2] لم يعرف مصدرها. فالشخص الذي أرسلها لم يفصح عن هويته ولم يُدْلِ باسمه

Carton . 2 chaouia XXIX ter, "Lamzamza", bibliothèque générale, Rabat

الحقيقي أو الجهة التي ينتمي إليها. وإنما اكتفى بتذييلها وتوقيعها باسم "الحاج". ولم تكن هذه الرسالة، التي أرسلت إلى القايد المذكور عبر البريد العادي، واضحة المعنى وسهلة القراءة، فهي لم تكتب بلغة سليمة أو أسلوب راق وجيد، بل كتبت بلغة بسيطة وخط رديئ يكاد يكون غير مفهوم، كأن صاحبها كان بسيط الثقافة وضعيف الرلمام باللغة العربية وقواعدها. ونظرا للصعوبة التي يمكن أن يجدها المرء في فك رموز هذه الرسالة فإننا فضلنا أن نعرض، إلى جانب النسخة الأصلية، نسخة أخرى تصرفنا فيها بعض الشيء لنجعلها أكثر قابلية للقراءة و"أسهل منالا" من الرسالة الأصل.. وفيما يلي مضمون الرسالة "الموضحة" :

«الحمد لله وحده. محبنا في الله ورسوله

القايد سي بوبكر المزمزي العروسي السطاتي

يسلم عليك القايد سي بوبكر على السيد الطريس الاسباني وعلى السيد عبد العزيز السلطان. نعلمكم بـ "سطات" ما فيها حتى نصراني، نعلمكم أن للسيد أحمد الهيبة اثني عشر ألفا وللسيد بلعينين، ثلاثين فارسا وعشرين من المشاة.

واليوم، عليك أن تذهب إلى سيدي بونوالة. فهو يوجد الآن في "سوس" بالذات.

سيدي عبد العزيز النصر من عند الله.

وعلى الهامش كتب ما يلي : «**والآن نحن كالماء في الوعاء ننتظر سيدي أحمد الهيبة الذي سيأتي قريبا. "العنوان" : الحاج، الدار البيضاء، درب دراوة**».

إن هذا النص هو نص من نوع خاص، والمقاربة التي يمكن أن نقوم بها لتفكيك "رموزه"، ينبغي أن تختلف عما درجنا عليه في تعاملنا مع النصوص "العادية" أو "المألوفة". إن هذا النص يفرض علينا نفسه بقوة، ويرتبط ذلك بعمق

وكثرة الاسئلة التي يضعها أمامنا عند محاولة قراءته واستخراج أفكاره الأساسية. وهذه الأسئلة نفسها ترتبط بضعف قدرتنا على اقتحام دائرة العتمة والغموض الذي يكتنفه، وتفسير وتوضيح "أحداثه". ومن الأسئلة التي تواجهنا وتعترضنا عند محاولة قراءة النص ما يلي :

- من كتب الرسالة ؟ وما هي الفئة أو الجهة التي ينتمي إليها صاحبها، أو أصحابها، إن كانوا كثرا ؟

- ما هو المستوى الثقافي لصاحب الرسالة ؟ فهي مكتوبة بشكل غير واضح وبخط رديئ ومضمونها يكاد يستعصي على الفهم. فهل كان مرسلها أو صاحبها محدود الثقافة وضعيف الإلمام بقواعد اللغة وفصيح البيان، أم أنه تعمد كتابتها على ذلك الشكل الرديئ حتى لا تتمكن أيدي الخصوم من الوصول إليه والتنكيل به ؟

- هل الرسالة وسيلة أو حيلة اخترعها البعض للاستهزاء من القايد وإدخال الرعب إلى قلبه ؟ وإذا كان الجواب بالنفي فكيف نتعامل مع بعض المعطيات الواردة فيها والتي يبدو أن الخيط الذي يربطها بالواقع ضعيف جدا ؟ فنحن لا نعرف ما إن كانت الأفكار المنصوص عليها في الوثيقة ذات ارتباط بالواقع أم أنها استعراض ل"أحداث" من نسج الخيال، لا وجود لها إلا في ذهن كاتب الرسالة ؟

- كيف نتعامل مع وثيقة هي عبارة عن طلاسم ورموز تحتاج إلى من يفكها ويحل عقدها وينير الجوانب المعتمة فيها ؟ وهل نحن أمام "وثيقة" قابلة لأن تقرأ وتحلل وفق الطرق والمناهج التقليدية المألوفة ؟

نشير هنا، إلى أننا لم نألف التعامل مع مثل هذه النصوص التي تجعلنا نتساءل، باستمرار، عن كنه العلاقة بين الحدث والنص المكتوب أو المروي المرتبط به ؛ فهذه الرسالة لا تثير أمامنا فقط، الأسئلة الهامة والمحرجة التي استعرضنا بعضها، بل إنها تفرض علينا أيضا نوعا آخر من الأسئلة ذات

البعد المنهجي. أسئلة تجعلنا نبتعد عن النص المذكور لنخوض في إشكاليات لها علاقة بمنهج وعمل المؤرخ بشكل عام.

2. رسالة القايد السطاتي

لما كانت فرنسا قد أرغمت على تقليص قواتها بالمغرب، بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى، فقد كانت مرغمة، إلى جانب اعتمادها على القوة العسكرية، على تنشيط وتفعيل "السياسة الأهلية" التي تقوم على مبدأ "التعاون" مع "الأهالي" من أجل نشر "الأمن" وتطبيق سياسة "الإصلاح" بالبلاد. وكانت "سياسة المخزن" تقتضي طبعا الاعتماد على الباشوات والقواد لتنفيذ خطة "الحماية" بالأقاليم المغربية الخاضعة للسيطرة. ويمكن القول بعبارة أخرى أن أعيان المخزن كانوا أدوات في أيدي الاستعمار يستعين بهم لقضاء مآربه وخططه الامبريالية[3]، ورغم ذلك فقد كان المستعمر لا يثق فيم ويتتبع حركاتهم وسكناتهم. وكان الأعيان، في المقابل، "مرغمين" على مسايرة الوضع وحريصين على تنفيذ أوامر السلطة الاستعمارية.

ودعما لسلطتها كانت الإقامة العامة تعطي أهمية قصوى للزيارات التي يقوم بها السلطان لمختلف المناطق الخاضعة للاحتلال. فهذا "التنقل التقليدي"، الذي أصبح يتم بالوسائل العصرية[4] ، كما يخدم مصلحة الاستعمار، ولو أنه كان، في نفس الوقت يقوي الروابط الموجودة بين السلطان والجماعات.

وفي ما يلي فقرات من تقرير هيأه القسم السياسي التابع لإدارة الشؤون الأهلية نستدل منه على أهمية تنقل السلطان بين الأقاليم بالنسبة للمستعمر : «**غادر السلطان الدار البيضاء**

3 ـ كانت الإدارة الاستعمارية مرتاحة، عموما، للدور الذي يلعبه أعيان المخزن بالشاوية آنذاك. انظر : عبد الحميد احساين، الشاوية بعد الانتفاضة، ص. 117 ـ 124، دفاتر الشاوية، ـ1 ـ، الشاوية، التاريخ والمجال، منشورات لجنة الشاوية، كلية الاداب والعلوم الانسانية، بنمسيك بالدار البيضاء، 1997.

4 ـ أصبحت السيارة الوسيلة التي تستعمل لتنقل "المحلات السلطانية"، وكان التنقل يتم ببطء أما المحطات التي تفصل بين المراحل فلم تكن تبعا للعادة المخزنية المألوفة، كبيرة Rapport mensuel du Protectorat, (Résidence générale. Bureau politique) septembre 1918.

متوجها إلى مراكش في 3 شتنبر (1918)... وللرحلة فائدتان: أن نظهر للناس، الذين افتقدوا مظاهر الأبهة التي تميز السلطنة، سلطانا على الطريقة التقليدية المعتادة، مستقلا وقويا وورعا، وأن تتدعم الصلة بين السلطان والمخزن ومناطق انقطعت بها العلاقة منذ 25 سنة. كما أن هذا التنقل.. الذي يتزامن مع مشكلة تافيلات وموت سي المدني الكلاوي وتزايد نشاط الألمان حول الهيبة... سيزودنا بالوسيلة الأكثر ملاءمة وأهمية التي ستساعد على تهدئة كل الجنوب المغربي»[5].

وقد أبدى الفرنسيون، في هذا التقرير، ارتياحهم للشكل الذي سارت عليه الأمور في المغرب في شهر شتنبر[6]، الذي اخترقت فيه المحلة السلطانية أرض الشاوية. لكن الأيام القليلة التي تلت هذا الشهر حملت معها مفاجأة، مذهلة ومقلقة في نفس الوقت، لقايد المزامرة "سي بوبكر السطاتي". ففي 7 أكتوبر توصل هذا القايد برسالة "الحاج" التي أقلقه أمرها وحيره وأدخل الذعر والفزع إلى قلبه.

وبمجرد ما تسلمها أسرع بإخبار المسؤولين الفرنسيين الذين قاموا بترجمة رسالته ليبعثوا نسخا منها رفقة الملف بأكمله، إلى المصالح المركزية، لتنظر في الأمر وتتخذ الإجراء الذي قد تراه ضروريا. ونحن لا نتوفر، مع الأسف، إلا على النسخة أو الترجمة الفرنسية، أما الرسالة/الأصل التي كتبها القايد ليخبر السلطة الاستعمارية بما وقع، فلم نعثر لها على أثر ولم نطلع عليها.

ونقدم فيما يلي مضمون الرسالة التي كتبها: «**يشرفني أن أبعث لكم رسالة مهمة من الناحية السياسية توصلت بها، عبر البريد. وكانت مثار قلقي وانفعالي لأنها تعرض وضعيتي للخطر. لاشك أن هذه الرسالة من**

5 - نفس المصدر.

6 - أكد التقرير أن شهر شتنبر 1918 مر بشكل عاد، وأن الناس احتفلوا فيه بعيد الأضحى يوم (17 شتنبر)، ونظموا خلاله الحفلات في كل النواحي والجهات.

اختراع خصومي الذين يسعون إلى تدميري وأؤكد أن صاحب هذا الاختراع القبيح كان يتمنى أن تسقط هذه الرسالة في أيدي الرقابة بالدار البيضاء ليحدث لي الأسوأ. أما صاحبها، فيدعى "الحاج" ويقطن بالدار البيضاء، بدرب "دراوة". وأنا متأكد أن الاسم والعنوان معا غير صحيحين. وكما هو جلي، فإن ظرف الرسالة يحمل طابع بريد سطات وليس الدار البيضاء. وهذا يدعم يقيني بأن الرسالة كتبت بـ "سطات" ووضعت في أحد صناديق البريد بها.

إنكم تعلمون أكثر منا، نظرا لتجربتكم السياسية الكبيرة، أن وثائق من هذا النوع ترسل دائما بواسطة رقاص خاص. وتعرفون، أيضا، أنني إنسان مسالم لا يمكنني ركوب الخبل، ولا أرغب إلا في العيش بأمان تحت رعاية الحكومة الفرنسية والمخزن الشريف. وإنني لست من الرجال الذين يمكن لمخلين بالنظام، مثل الهيبة وماء العينين وغيرهم، أن يثقوا فيهم. كما تعرفون أنني لا يمكن أن أتوقع خيرا من هؤلاء المحرضين الذين يثيرون الفوضى بالبلاد، وأن الإنسان، بطبعه، يصارع من أجل الحياة، وأن مصيري رهين بمصيركم وأن مصلحتي تكمن في أن أعمل معكم على تنمية نفوذ حكومتينا اللتين أعيش بفضلهما بكرامة ويحمياني.

وملخص القول فالرسالة المذكورة حيلة يتوخى منها الحاسدون الاضرار بي وأنا أرسلها لكم لتحموني من سمومهم ولتكونوا على علم وبينة من الأمر».

ترجمة طبق الأصل

سطات، 7 أكتوبر 1918.

توقيع مترجم المراقبة المدنية(7)

3 ـ مغزى رسالتي "الحاج" و"القايد"

Carton - 7
Chaouia.
XXIX ter.

سنكتفي بالوقوف عند بعض القضايا التي أثارت

اهتمامنا، وأوحت لنا بها قراءتنا للتقارير والوثائق المذكورة أعلاه، وخصوصا لرسالة "الحاج" و"جواب" القايد.

مسألة أحمد الهيبة : بعد أن غرست الامبريالية أنيابها في الجسد المغربي المنهك القوى، استولت الحيرة على قلوب المغاربة، وانتابتهم حالة من التوتر والانفعال، واتجهت أنظارهم لأحمد الهيبة الذي أعلن نفسه، بعد توقيع عقد "الحماية" وخلع مولاي حفيظ - سلطانا للجهاد - فحركة الهيبة استحوذت على الأذهان وملكت المشاعر وأغنت خيال الناس نتيجة شيوع أخبار ورواج إشاعات وروايات عجيبة/فانتستيكية عن قدراته الخارقة للعادة.

لكن الفشل الذريع لحركة الهيبة، بعد معركة سيدي بوعثمان والضغط العسكري اللذين تعرضت لهما، أرغماها على التقهقر والتراجع. وإذا كانت الحركة قد استرجعت بعض أنفاسها، عقب اندلاع الحرب العالمية الأولى، وخصوصا بعد شيوع الأخبار عن الاتصالات مع الألمان والاسبان والأتراك[8]، فإنها لم تعد تشكل بعد الحملة التي نظمت ضدها سنة 1917[9]، أي خطر على الفرنسيين... فالحركة، بعد انسحاب "الهيبة" إلى "نكردوس" وتحصنه بها، اتخذت "طابعا اقليميا"، ولم تعد تثير قلق ومخاوف الفرنسيين، الذين ازداد مركزهم قوة وصلابة، بعد ظهور علامات العجز والضعف العسكريين على ألمانيا التي أرغمت بعد الهجومات الكبرى التي قامت بها، في شهر يوليوز 1918 ، على طلب الهدنة.

وبناء على هذا الاعتبارات كلها، أمكن القول

8 - ففي نهاية سنة 1916 ؟؟ دخل الاسبان «مدينة طرفاية وأخذوا يوالون الأغضف أخا الهيبة». كما وصل إلى المنطقة في نفس الفترة تقريبا، «أحد القناصلة الألمانيين.. ومعه ضابط تركي، ولم يكن يخفي أنه يريد الاتصال بأبناء ماء العينين» (الدكتور عبد الله العروي، "أحمد الهيبة"، مذكرات من تاريخ المغرب، الجزء الخامس، (110 - 127)، ص. 119.

9 - قاد الحملة الجنرال "لاموط" الذي أرغم، نتيجة المقاومة العنيفة التي صادفها، في بداية العمليات العسكرية بمقاومة عنيفة أرغمته على التراجع. وإذا كانوا قد وجدوا صعوبات كبيرة في ضرب الحركة فإنهم تمكنوا، في النهاية، من إضعاف شوكتها ومن إرغامها على الانزواء والانكماش.

بأن ما ورد في النص المذكور أعلاه بخصوص أحمد الهيبة والإسبان أمر يثير الحيرة والاستغراب. ولا نجد له أي تفسير أو مبرر إلا في حالة ما إذا نظرنا للأمر في مستوى الذهنيات ووضعنا في الاعتبار الصدى الذي خلفته الحركة في نفوس المغاربة الذين كانوا يجدون فيها النموذج الذي يقتدى به. فهذه الحركة كانت، نظرا للمكانة الكبرى التي احتلتها في نفوس المغاربة، ملحمة حية لا تنمحي صورتها المتوهجة من الذاكرة رغم الوهن والضعف اللذين أصاباها. وكانت ذكراها تنتعش في صدور المغاربة في الشاوية أو غيرها. ويعد هذا، في حد ذاته، عاملا من العوامل التي تدل على عمق الروابط الموجودة بين الجهات والأقاليم المغربية. فحالة الحصار التي فرضها الاستعمار، والتقسيم التعسفي الذي خضع له المغرب لم يقضيا على الإحساس بالانتماء إلى نفس الكيان ولم يلغيا من الذاكرة ما هو مشترك بين المغاربة.

- مسألة "عودة" عبد العزيز : أدى انهيار المخزن وفشل الحركة الحفيظية (1907 - 1909) إلى ظهور أزمة اجتماعية سمتها الأساس تيه النفوس واضطراب الأذهان. ورافق ذلك انتشار الاشاعات عن قرب زوال عهد فيلالة[10].وبعد دخول أحمد الهيبة إلى مراكش سارع الناس إلى مبايعته سلطانا للجهاد. ولم يحل ذلك دون انتشار الأقاويل وسط عناصر النخبة المغربية عن احتمال "عودة" السلطان مولاي عبد العزيز، لتولي السلطنة في المنطقة التي انتشرت فيها حركة الهيبة.

هكذا كان الربط قائما، في الأذهان، بين السلطة والجهاد أو بين المخزن والمقاومة.. فإذا كان المغاربة يسعون، غالبا، لخلع أي سلطان متخاذل عاجز عن صد العدوان ومواجهة الاحتلال، فإنهم كانوا، في نفس الوقت، يبحثون عن بديل ليكون سلطانا للجهاد.

10 - Daniel Rivet, Lyautey et l'institution du protectorat, 1912 - 1925. (3 tomes). édition l'harmattan, Paris, 1988. p. 92 - 93.

والحديث عن "عودة" عبد العزيز، في هذا النص تجد تفسيرها في هذه الحيثيات التي تتبني على مرجعية خاصة بالمغرب تتغذى من "إيطوبيا ارتجاعية" تجعل من الاسلام و"المدينة الاسلامية" قاعدتها الأساس وتجعل من فكرة العودة إلى عهد شبيه بعصر مولاي الحسن حلمها الكبير.

- لقب "الحاج" : لم يختم كاتب الرسالة رسالته بذكر اسمه ونسبه، وإنما اكتفى بالتوقيع باسم "الحاج". قد يكون لذلك ارتباط برغبة المعني بالأمر في السرية حفاظا على حياته، فنحن لا نعرف الظروف التي كتبت فيها الرسالة ولا الأسباب التي دعت كاتبها إلى اختيار لقب "الحاج". لكن اختيار هذا اللقب بالذات له، في نظرنا، دلالته ومغزاه، ولو أن الأمر قد يكون عفويا وغير مقصود فاللقب له أهميته في الحقل الثقافي وله وزنه ومكانته على المستوى الرمزي والمقدس.

إن لقب "الحاج" يرمز لعمق ارتباط المغربي بحقل ثقافي معين وقوة استناده إلى مرجعية ثقافية معينة، وهي مرجعية خاصة تبرز ارتباطه بالتاريخ والدين الإسلاميين وتشبثه بالتقاليد الدينية[11]، تشهد على ذلك، الأغاني الشعبية ذات الطابع المهدوي، التي ظهرت في مطلع القرن[12]، واستمرار الناس في انتظار حصول معجزة ربانية تنقذ البلاد من المصيبة التي حلت بها[13].

القايد وإشكالية السلطة الاستعمارية :

إن "القايد" رمز من رموز السلطة المخزنية الذي لا تخفى أهميته في النسيج الاجتماعي المغربي.

10 - Daniel Rivet. Lyautey et l'instit-ution du protectorat, 1912 - 1925, (3 tomes), édition l'harmattan. Paris. 1988, p. 92 - 93.

11 - كما أنه يرمز لارتباط الديني بالسياسي، إذ أن الإيمان أو الدين عامل محفز على رفع لواء الجهاد وعنصر كفيل بتقوية روح التلاحم، والتضامن بين المسلمين.

12 - وهي "الجعفريات" التي مجدت، في شخص مولاي محمد بن مولاي الحسن، "الشريف المنتظر" والمنقذ الذي يحتاجه الوقت Doutté, Les causes de la chute d'un sultan, Vème conférence, Renseignements coloniaux, n° 11 - 1909, p. 230. D. Rivet, Lyautey et l'institution du protectorat, t. I, p. 102

13 - دانييل ريفي، نفس المرجع والصفحة.

لكن سلطة القايد، والمخزن بشكل عام، أصبح لها وضعها الخاص في فترة "الحماية" ؛ فالاستعمار الذي رفع شعارات جديدة، مثل "المشاركة" و"التعاون"، لتبرير الاحتلال الذي تعرض له المغرب، انتزع السلطة الفعلية من السلطان والمخزن رغم احتفاظه بهما، وحول القواد والباشوات إلى أدوات يستغلها لتنفيذ سياسته الاستعمارية.

استنتاج : إذا كانت رسالة القايد واضحة المبنى والمعنى، بحيث أن دلالتها لا تخفى على الباحث المتمحص، فإن رسالة "الحاج" تختلف عنها كثيرا. فهذه الرسالة قد لا تعكس "الواقع" تماما. وقد لا تكون حاملة لحقائق ووقائع مألوفة لدى المؤرخ الوضعاني المتيم بالحدث السياسي والعسكري والمتلهف لرصد الوقائع والأحداث السياسية والإنصات لنبض المعارك. لكنها قد تحمل في أحشائها صورا تعبر عن حالة ذهنية معينة وعن رغبات دفينة وطموحات قمعت فظلت سجينة الصدور.

إن مقاربة نص من هذا النوع تتطلب الارتقاء بالتحليل إلى مستوى الذهنيات والتمثلات. فهو في هذا الجانب، "يفصح" عما قد لا نجده في النصوص والشهادات "التقليدية"، إنه يظهر لنا ما كان يختلج في صدور المغاربة من مشاعر وأحاسيس، يبدو لنا، من خلالها الارتباط بين الهوية والتاريخ والدين ؛ ذلك الارتباط الذي قوى الإحساس والشعور بالانتماء إلى كيان واسع يتجاوز حدود القبيلة والجهة ويغذي ويقوي روح المقاومة التي لم تفلح نيران القمع في القضاء عليها.

إنه مثال قدمناه لنبين بأن فشل انتفاضة الشاوية، والمقاومات الأولى التي صادفها المستعمر، لم يَعنِ أبدا الاستسلام التام للمحتل. فالمقاومة استمرت، لكنها أصبحت مقاومة معنوية، استمدت مادتها وغذائها وديناميتها من الدين والتاريخ والتقاليد. لقد كان الفرنسيون أقوياء عسكريا والمغاربة شعروا بذلك

ولمسوه، لكنهم وجودا في ذاكرتهم وتاريخهم وتراثهم ما يجعلهم يحافظون على هويتهم ويقوي روح الترابط والتآخي بينهم. وإذا كان الجرح الذي خلفه الاستعمار عميقا فإن ما كان يخفف من حدة الألم انتظار اليوم الذي يتحقق فيه حلم استرجاع الحرية والاستقلال. فالهدوء الظاهر، المفروض بقوة البنادق والمدافع، لم يطفئ نار المقاومة، وإنما هي... نار الرماد.

TRADUCTION

Louange à Dieu Unique

A notre ami en Dieu et au Prophète, le Caîd Si Bou Bekeur El Mazemzi El Aroussi Settati.

Le Caïd Si Bou Bekeur vous envoie le salut ainsi qu'à Si Torres, l'espagnol et à notre Sultan Abdelaziz, je vous fais connaître qu'il n'y a plus de chrétiens à Settat, que Si Ahmed El Hiba a douze mille (?) que Si Bel Aïnin a trente cavaliers et 20 fantassins.

Maintenant, venez chez Sidi Bou Nouala, aujourd'hui Sidi Bou Nouala est au Souss même.

Sidi Abdelaziz est l'élu de Dieu

Salut

El Hadj à Casablaca, Derb Draoua

En marge se trouve le P.S. suivant :

Aujourd'ui,nous sommes unis comme l'eau dans un vase, nous attendons à chaque instant Sidi Ahmed El Hiba qui doit arriver incessamment.

Pour traduction conforme
Settat, le 5 octobre 1918
L'interprète du Contrôle civil

TRADUCTION

Le 28 Hidja 1336 (5 octobre 1918)

Du Caïd Si Bou Bekeur Ben El Hadj El Maati
de la tribu des Mzamza - Settat
à Monsieur le Contrôleur Civil de Chaouia - Sud - Settat

J'ai l'honneur de vous adresser ci-inclus une lettre très importante au point de vue politique, que j'ai reçue par la poste et qui m'a vivement ému tant elle mettait ma situation en danger.

Cette lettre est à coup sûr le produit d'un invention de mes ennemis dont le seul but est de me faire disparaître.

L'auteur de cette méchante invention espérait que sa lettre passerait par la censure à Casablanca où elle m'aurait causé une mauvaise et malheureuse histoire. Cet auteur se dénomme El Hadj (?) demeurant à Casablanca Derb Draoua. Je suis persuadé que c'est là un nom et une adresse imaginaire.

Comme vous pouvez en rendre compte vous-même. l'enveloppe porte le timbre de la Poste de Settat et pas celui de Casablanca; c'est ce qui me donne la certitude qu'elle a été écrite ici et mise dans l'une des boîtes aux lettres de la ville.

Vous n'ignorez pas que les documents de ce genre ne voyagent jamais par la poste et que c'est toujours par rekkas particulier qu'ils arrivent à destination ; vous le savez mieux que moi par votre longue expérience des affaires politiques. Vous savez également que je suis un homme paisible qui ne peut même pas monter à cheval, qui ne damande qu'à vivre tranquille sous la bienveillante protection du Gouvernement Français et du Makhzen chérifien et que je ne suis pas l'homme sur lequel peuvent compter avec confiance des pertubateurs tels que les El Hiba, les Ma-El Aïmin et autres, vous savez aussi que je ne puis attendre des jours meilleurs avec ces agitateurs qui troublent le pays ; que l'homme est naturellement porté vers la lutte pour la vie, que ma vie est dépendante de la vôtre et que j'ai tout intérêt à travailler au développement de l'influence des deux Gouvernements qui me font vivre honorablement et me protègent.

En résumé, la lettre à laquelle il est fait allusion plus haut, est une ruse contenant tout le mal que peuvent causer des envieux. Je vous l'envoie afin que me préserviez contre leur morsure et que vous sachiez à quoi vous en tenir.

Ecrit à la date ci-dessus.

Signé : Bou Bekeur Ben Maati

Pour traduction conforme
Settat, le 5 octobre 1918

L'interprète du Contrôle civil

جوانب من المقاومة المسلحة بالدار البيضاء من خلال بعض الذاكرات والشهادات

محمد الفلاح العلوي

يمتاز المسار النضالي للشعب المغربي على امتداد التاريخ بتعدد محطاته ضد أي تدخل أجنبي منذ تاريخه القديم إلى الآن. ومن أبرز هذه المحطات القريبة منا في التاريخ المعاصر، مرحلة القاومة المسلحة التي أعقبت التدخل الأجنبي في شؤون البلاد في النصف الثاني من القرن 19 وما تلاه من فرض للحماية الفرنسية في مطلع القرن العشرين، وإذا كانت هذه المرحلة قد امتازت ببروز نضال البادية والقبائل في كل أنحاء المغرب فإن مرحلة الخمسينات من هذا القرن تعتبر بحق منطلقا لكفاح الحاضرة والمدينة بصورة خاصة ويتجلى هذا بالخصوص في نموذج مدينة الدار البيضاء التي تزعمت حركة المقاومة والفداء وبتتها في باقي المدن والحواضر والبوادي المغربية، وإذا كان من الواضح لدى كل مهتم بتاريخ المغرب المعاصر الشروط والخصوصيات التي أهلت الدار البيضاء لتلعب هذا الدور باعتبارها تمثل مغربا مصغرا بجميع فئاته وقبائله بسبب عامل الهجرة إليها وعامل تركز الجاليات الأجنبية وخصوصا الفرنسية فيها بالإضافة إلى مكانتها الاقتصادية

التي جعلت سلطات الحماية تركز فيها كل أنشطتها اقتصاديا واجتماعيا وحتى سياسيا فأهلتها هذه الشروط كذلك لدى المقاومين لأن تكون مركز نشاط المقاومة المسلحة التي توازت مع العمل السياسي الوطني الذي خاضته الحركة الوطنية وبالخصوص بعد تطورات ما بعد الحرب العالمية II.

وإذا كانت هذه المعطيات في عموميتها معروفة لدى المتهم بهذا الموضوع، إلا أنه يصطدم بالكثير من الغموض وتضارب الآراء فيما يخص مسألة نشأة المقاومة بالمدينة وتحديد الطرف الذي كانت له أكبر مساهمة في إشعال فتيل حركة المقاومة المسلحة فيها وإذا كان هذا الغموض طبيعيا بالنظر لطبيعة العمل الفدائي السرية وعدم الاحتفاظ بوثائق الخلايا السرية نظرا لدقة المرحلة وظروفها المرتبطة بالاستعمار فإن الاعتماد بالأساس لدى الباحث ينصب على ما بقي راسخا في أذهان المقاومين الأحياء من روايات وشهادات عن المرحلة بوجه عام وعن عملهم ونشاطهم الفدائي بوجه خاص، رغم ما يكتنف عنصر الرواية الشفوية من صعوبات منهجية معروفة.

إلا أن الزمن الذي يفصلنا عن هذه المرحلة التاريخية الدقيقة وما تراكم منذئذ من مذكرات مكتوبة لروايات شفوية تم تحويلها إلى روايات مكتوبة بعد الاستقلال بالإضافة إلى ما يصرح به المقاومون في إطار ملفات المندوبية السامية أو ما يمكن الحصول عليه من روايات شفوية مباشرة منهم يجعل الباحث أمام كم من المعلومات والآراء التي تحتاج إلى كثير من التمحيص والدرس.

وقد أعطت المقاربة الأولية لهذا الموضوع لدى المهتمين به بروز ثلاثة اتجاهات أساسية :

- الاتجاه الأول : ويخص الإطار العام للعمل الفدائي ووقائعه الكبرى والأشخاص الأساسيين الفاعلين فيه، وهذا رأي يتفق حوله الجميع وتسنده

الوثائق الأخرى، من محاضر المحاكمات وأنباء صحافة ذلك الوقت سواء منها المنحازة للاستعمار أو ذات البعد الوطني أو المحايد.

- الاتجاه الثاني : يتفق مع الاتجاه الأول في الإطار العام ولكنه يحاول التأكيد على دور حزب الاستقلال بالخصوص في التهييء لبداية المقاومة المسلحة وتتبع استمراريتها طوال مراحلها ويربط بعمق علاقة وطيدة بين العمل السياسي الوطني والعمل الفدائي المسلح وذلك لاعتبارات إديولوجية خاصة بمسار الحركة الوطنية والسياسية بعد الاستقلال.

- الاتجاه الثالث : يؤكد على عفوية انطلاق المقاومة المسلحة في الخمسينات من لدن الجماهير الشعبية بسبب تصاعد الضغط الاستعماري، ويجعل الارتباط بين العمل السياسي والحزبي وبين العمل الفدائي المسلح ارتباطا غير مباشر، وقد يتطرق البعض للقول بوجود قطيعة بين العملين في هذا الصدد.

تبقى إذن مسؤولية الباحث عن الحقيقة في هذا الموضوع جسيمة وتحتاج إلى وقت وبعد نظر وتمحيص للأحداث والروايات ومقارنتها. وهو عمل يجب أن تتضافر من أجله جهود الباحثين في التاريخ جماعات وأفرادا، وفق منهجية علمية تميط اللثام عن خبايا هذا الموضوع.

سأقتصر في هذه العجالة على إعطاء ملخص عن الاتجاه الأول بخصوص مساهمة الدا البيضاء في الحركة بوجه عام بتلخيص ما اتفق عليه الجميع بخصوصها وإبراز أهمية دورها على الأقل في الإطار العام دون الدخول في تفاصيل الموضوع التي تحتاج إلى الكثير من التروي والأناة وذلك بالاعتماد على عدد من الروايات الشفوية سواء المكتوبة منها أو الافادات المباشرة لبعض المقاومين وكذا باستعراض نتائج بعض البحوث التي أنجزت في الجامعة في إطار الإجازة.

الانطلاق والتنظيم

يمكن حصر العمل الفدائي في الدار البيضاء في الفترة الممتدة ما بين 1951 أو 1952 إلى 1956 بسبب الأحداث الهامة التي شهدتها البلاد عموما خلال هذه المدة الزمنية وتطور مسار علاقة المغاربة بالاستعمار بوجه عام وقد شكل حدث نفي السلطان سيدي محمد بن يوسف في 20 غشت 1953 محور هذه المرحلة حيث تصاعدت بعد هذا التاريخ وثيرة العمل الفدائي العنيف ويبرز هذا بجلاء من خلال جرد أولي للعمليات المسلحة التي شهدتها المدينة من 1953 إلى 1956. وهي كالتالي :

السنة	العمليات بالمسدسات	العمليات بالقنابل	إضرام النار	عمل موجه ضد الخونة		عمل موجه ضد الأجانب	
				الجرحى	القتلى	الجرحى	القتلى
1953	47	25	39	30	36	14	15
1954	124	95	93	41	112	55	38
1955	393	353	217	203	225	86	73
1956 من يناير إلى أبريل	54	18	38	33	54	31	19
مجموع العمليات والخسائر	618	491	387	307	427	331	145

ملاحظات حول الأرقام السالفة الذكر :

- في مجملها تقريبية تدل على الحد الأدنى.
- زخم حركة المقاومة المسلحة وتطوها داخل المدينة بصورة تصاعدية.
- ملاحظة عدم إدراج العمليات السابقة عن هذه المرحلة أي قبل 1953 والتي تمثل منطلقا أوليا لعمليات الفداء.

وإذا كانت السمة الشعبية والعفوية تنطبق على بعض العمليات فإن أغلبها كان مؤطرا ومنظما في إطار منظمات سرية مختلفة تعتبر «المنظمة السرية» أهمها وأكثرها نشاطا وإلى جانبها وجدت منظمات : اليد السوداء - الهلال الأسود - النجم الاسود - حركة أنصار الفداء - بالإضافة إلى اتحاد الجنوب الذي تأسس قبل المرحلة المشار إليها وحل قبلها، كذلك ويحتاج إلى دراسة خاصة، هذا بالإضافة إلى بعض التنظيمات الثانوية المنبثقة عن السالفة الذكر.

أما عن وسائل الاتصال والتواصل بين حركة المقاومة والشعب فقد شكلت المناشير أهمها وقد تدرج العثور على مناشير عدة شكلت موضوع اعتقالات ومحاكمات كما هو الشأن بالنسبة لعملية مطبعة الأطلس، وقد غطت هذه الوسيلة الفترة من 1953 إلى 1956 وتحددت موضوعاتها في استنهاض الهمم لمقاومة الأجنبي بصورة عامة، كما وجهت عدة عمليات فدائية ضد بائعي السجائر من 1953 إلى 1956 كان هدفها معاقبة الأشخاص الذين لم يمتثلوا لنداء مقاطعة هذه البضاعة الاستعمارية.

لقد أدت هذه الحركة الفدائية داخل المدينة إلى ردود فعل قوية من طرف المستعمر ثم تصنيفها كما يلي :

- اجراءات بوليسية مشددة أبرزها الاستعانة بقوات مساعدة من أبناء البادية.
- الاستعانة بمختصين في مكافحة الارهاب من بلدان أجنبية.
- القيام بالارهاب المضاد.
- الاعتقالات والمحاكمات.

وإذا كنت سأرجئ مناقشة هذه الاجراءات إلى فرصة أخرى فإن ما يمكن استنتاجه منها أن حركة المقاومة، واجهت صعوبات جمة بعضها يتعلق بهذه الاجراءات الاستعمارية وأخرى متعلقة بطبيعة العمل الفدائي ومحدودية وسائله

وحصوله على الأسلحة وقلة الخبرة في صنع المتفجرات، وهذا ما يفسر اللجوء إلى استعمال كل الوسائل الممكنة كالسلاح الأبيض والقارورات المتفجرة، وقد تسلسل العمل الفدائي بدءا بالمناشير، ثم ضرب رموز الاستعمار والتهديدات والاغتيالات بالإضافة إلى محاولة خلق حصار اقتصادي ضد المستعمر مما يدل على أهمية عنصر التأطير والتنظيم الذي اضطلع به جملة من كبار المقاومين مثل محمد الزرقطوني الذي يمكن أن أتحدث عنه كنموذج لشخصية مقاوم بيضاوي استحق أن تكون ذكرى استشهاده يوما رسميا للمقاومة كل سنة.

شخصية الشهيد محمد الزرقطوني والعمل الوطني المسلح

إن المتتبع لحركة المقاومة المسلحة بالدار البيضاء يلاحظ ارتباطها الوثيق من حيث النشأة والتنظيم والاعداد بشخصية الشهيد محمد الزرقطوني الذي لم يقتصر عمله على الدار البيضاء، بل كان له اتصال بمناطق أخرى من المغرب من أجل توسيع دائرة العمل الفدائي إلى جانب عدد من اخوانه المقاومين سواء داخل المدينة أو خارجها، وبذلك كان هذا البطل في تلك الأثناء محركا أساسيا للعمل الفدائي إلى أن اكتشف أمره فحافظ على أسرار المقاومة وعلى استمراريتها بابتلاعه قرص سم كان لا يفارقه وذلك أثناء اعتقاله بعد أن تعرفت عليه سلطات الحماية التي كانت تبحث عنه منذ مدة، فكان استشهاده في 18 يونيو 1954 وهو ثاني شهيد يبتلع السم بعد الشهيد حسن الصغير (6 فبراير 1954) بمثابة نهاية مرحلة أولى من مراحل المقاومة في الدار البيضاء، وبداية مرحلة أخرى نضجت فيها أعمال المقاومة وتطورت فكان بذلك من رواد التأسيس الأوائل للعمل الفدائي والمساهم في وضع لبناته الأولى، فما هي إذن الجوانب المؤثرة في شخصية محمد الزرقطوني التي أهلته ليلعب هذا الدور الهام في تاريخ المقاومة ؟ :

إن تربيته العائلية في وسط ديني، جعلته يتشبع بالافكار الوطنية المنبثقة

من التفكير الديني الملخص في فكرة حب الوطن من الإيمان ويعزز هذه الفكرة أن والده كان مقدم زاوية دينية بزنقة فاس بالدار البيضاء، مما أهله لحفظ القرآن في سن 15 سنة تقريبا فأقام له والده حفلا دينيا بهذه المناسبة، بالإضافة إلى مهنته كبناء فكان يعطي لابنه الأكبر اهتماما خاصا يتجلى في تعليمه وإحاطته بخزانة كتب وإتاحة الفرصة له للإحاطة بالأحداث الوطنية بجميع الوسائل. وقد ولدت هذه الظروف لدى الزرقطوني حبا شديدا لوطنه كان يتنامى مع تنامي الأحداث التي عايشها منذ صغره إلى الخمسينات فهو المزداد سنة 1927 سيعاصر كل أحداث مرحلة الحماية وفي أكبر مركز للفرنسيين والأجانب ألا وهو الدار البيضاء التي ستتصاعد فيها وثيرة التغلغل الفرنسي بالخصوص بعد الاربعينات مما جعل عمل المقاومة المسلحة ينطلق منها ويتصاعد تدريجيا في السنوات الأولى للخمسينات.

أما المؤشر الثاني في شخصية الزرقطوني والذي يفسر ارتباطه بالعمل الوطني والفدائي فيتجلى في أنشطته الموازية التي كانت تعتبر منجما للبحث عن اصدقاء الفداء والمخلصين لوطنهم ولشرعية سلطانهم وتتركز هذه الأنشطة الموازية في نشاطه الرياضي حيث كان يتزعم عدة فرق رياضية لكرة القدم منها فرقة المولودية البيضاوية، ويضاف إلى ذلك نشاطه الكشفي في إطار الكشفية الحسنية في فرقة مولاي اسماعيل وفصيلة خالد ابن الوليد التي كان رئيسا لها بعد تدرجه في صفوف العمل الكشفي الذي اكتسب منه عدة صفات في تنظيم العمل والاشراف عليه والتكتم على الاسرار وغير وذلك من أخلاقيات الكشاف المثالية.

المؤشر الثالث في حياة محمد الزرقطوني يرتبط بمهنته كتاجر في الخشب والاثواب والتي كانت تتيح له فرصة التعرف على فئات متعددة داخل مجتمعه وربط علاقات صداقة كان يستثمرها في التعرف على الأشخاص الذين يمكن الاستعانة بهم في العمل الفدائي الوطني ممن يتوفرون على نفس

الامكانيات والمؤهلات الشخصية والاقتناع بالقضية الوطنية والجدير بالذكر أن توزع عمله هذا بين ناحيتين أساسيتين في مدينة الدار البيضاء هما المدينة القديمة ودرب السلطان أكسب تحركاته في هذا المجال أهمية قصوى ففي إطار مهنته وأنشطته الموازية كان وبصورة كتومة وتدريجية يختار من يعمل معه حيث كان يخطط لهذا الاختيار ليأتي عفويا من ناحية ومرتكزا على أسس السرية والحيطة من ناحية أخرى.

أهداف ومظاهر العمل الوطني الفدائي عند الزرقطوني

لقد اجتمعت هذه المؤهلات المختلفة في شخصية محمد الزرقطوني لتجعله مؤهلا في بداية الخمسينات للقيام بالعمل الوطني ثم الفدائي وبأخذ المبادرة في الاتصال بالعديد من أقرانه في العمل الفدائي وربط الاتصال بهم وبالتالي تشكيل التنظيم الأول في الدار البيضاء للعمل الفدائي فكان عمله في هذا الميدان متصفا بما يلي :

لقد كان للأعمال التي ساهم بها محمد الزرقطوني بمعية الرجال الأوائل للمقاومة في بداية الخميسنات طابعا تدريجيا وفق استراتيجية مدروسة فكانت البداية بالمنشورات وكان أول منشور يدعو لإقفال المتاجر يوم الجمعة ردا على فرض سلطات الحماية ليوم الأحد كيوم عطلة أسبوعي وذلك في إطار عمل انتقالي من الخط السلمي التقليدي في إطار حزب الاستقلال إلى الاستعداد لمرحلة المواجهة العنيفة والمقاومة اللاسلبية ؛ فمن المعلوم أن الزرقطوني كان من مسيري جماعات عدة في حزب الاستقلال تحولت فيما بعد إلى العمل المسلح[1].

ومن هنا يتجلى الهدف الأساسي من هذا العمل وهو تعبئة الجماهير ضد سلطات الحماية في إطار أعمال ذات صيغة جماعية وتحسيسية كإغلاق المتاجر، وإذا كان الهدف الأساسي لأعمال الزرقطوني ومجموعاته بعد نفي

1 ـ بغض النظر عن توجه الحزب في هذه المسألة التي تختلف حولها الاراء.

السلطان محمد بن يوسف مرتكزا على العمل على دفع السلطات الفرنسية إلى إرجاع الملك الشرعي للبلاد فإن هاجس القضاء على الخونة والمتعاونين مع الاستعمار كان يشكل هدفا ثانيا واستراتيجيا في عمل الفدائيين في هذه المرحلة وهكذا كان يحرص على توسيع الجماعات المسلحة في الدار البيضاء وبثها في مدن أخرى فأصبح عمله عبارة عن شبكة واسعة من العلاقات الموسومة بالسرية والفعالية في التخطيط والتنفيذ فكانت الاجتماعات السرية بالخصوص في حي الاحباس سواء في ورشة الحسن العرائشي لتجليد الكتب أو مكتبة الاخوان للتهامي نعمان أو مخزنه قرب المسجد اليوسفي أو بمكان بدرب القريعة. وكانت هذه الاجتماعات تركز على تبادل الأخبار حول القضية الوطنية ومناقشتها وتحليلها واتخاذ الاجراءات العملية لتنفيذ العمليات المسلحة.

فأسفرت الاجتماعات الأولى عن طبع المناشير السالفة الذكر وتوزيعها في البيضاء وفاس وسطات ومكناس[2] ثم تآلفت مجموعة المتطوعين التي قامت بعدة عمليات فدائية[3] وقد تشكلت ثلاث مجموعات فدائية كلها كان الزرقطوني من أبرز المتحركين فيها إن لم يكن عقلها المدبر قبل التنفيذ...

لقد شكل 20 غشت 1953 منطلقا رسميا لأعمال المقاومة والفداء التي ساهم فيها الزرقطوني بقسط وافر نذكر كمثال عليه، التخطيط لقنبلة السوق المركزي، توالت بعد ذلك العمليات المختلفة التي تحتاج في تفاصيلها إلى تدقيق وتمحيص يجعلنا لا نتعرض لها بالتحليل إلا بعد التأكد من دقائقها.

خلاصة

على الرغم من أن الأعداد الأولى للمقاومين كانت

2 ـ يشير سليمان العرائشي في كتابه عملية مطبعة الاطلس بالدار البيضاء من تاريخ المقاومة السرية بالمغرب، نشر المندوبية السامية... 1994، الصفحة 51 إلى تفاصيل تخص ثلاثة مناشير تم طبعها من طرف خلية "المتطوعون" ووزعت في فبراير 1952 على أنحاء المغرب المذكورة أعلاه وقد توج هذا العمل بإحداث مطبعة الأطلس الشهيرة.

3 ـ نفسه، ص. 55.

محدودة وغير معروفة بصورة دقيقة فإن الوجود القوي لشخصية الزرقطوني في صفوف المقاومين الأوائل وتدبيره للعديد من العمليات وإشرافه على مجموعات عدة وربطه للاتصال بين المقاومين خارج الدار البيضاء يجعلنا نؤكد على الدور الطلائعي لهذا الزعيم في أعمال المقاومة المسلحة مما يعطي مصداقية للمرجعية الشخصية التي استعرضناها في بداية هذا الموضوع الذي لازال بحاجة إلى مزيد من النظر والتمحيص.

قصبة القرشي بن الرغاي

أحمد أشعبان

خطا البحث العلمي في بلاد الشاوية خطوات لابأس بها، أصبحت معه جوانب جديده ترى النور، وتصل تدريجيا إلى ساكنتها المحلية والوطنية. وقد أتى موضوع البحث في قصبات بلاد الشاوية كجانب من الجوانب التاريخية والأثرية التي تهتم بها "مجموعة البحث حول التراث الأثري ببلاد الشاوية" التابعة لكلية الآداب عين الشق بالدار البيضاء، والمكونة من أساتذة باحثين وطلبة الإجازة.

تكلف ثلاثة طلبة، خلال السنة الدراسة 98 ـ 1999 ، بالبحث في قصبات بلاد الشاوية وهم : فتيحة بنسماحي ونجاة قايدجي وعمر مصيون[1]، ويعود الفضل إليهم في ضبط النصوص التاريخية والتوطين الجغرافي لقصبة القرشي بن الرغاي، حيث رافقتهم للدراسة الأثرية والمعمارية بعين المكان بتاريخ 1998/11/15.

يطرح البحث في موضوع القصبات عامة عدة مشاكل طبونيمية وتاريخية ومعمارية، وهي مشاكل نحاول التعمق فيها بالبحث من خلال نموذج "قصبات بلاد الشاوية"، وسنقتصر هنا على بعض المفاهيم

1 ـ العمارة العسكرية : نموذج القصبات ببلاد الشاوية، بحث إجازة تحت إشراف الأستاذ أحمد اشعبان، السنة الجامعية 1998/1999، جزءان.

والخصوصيات المعمارية التي ستمهد لنا الحديث عن نموذج قصبة القرشي بن الرغاي.

يفهم من تفسير ابن منظور لكلمة "قصبة" أنها بناء يقام وسط بناء آخر فيشكل مركزه أو وسطه، فهي جوف القصر، وجوف الحصن وقصبة القرية وسطها، فهي ليست ببناء مستقل بل متصل ببناء آخر[2]. ويمكن تفسير هذه العلاقة بين البناءين أن البناء المركزي أي القصبة هو الأصل بينما القصر أو الحصن ما هو إلا سور محصن يحيط بالقصبة. ويضيف ابن منظور أن "القصاب" هي الديار واحدتها قصبة أي دار.

إن الإشكال الأساسي المطروح هنا هو : ما مفهوم القصبة بالغرب الإسلامي عامة وببلاد الشاوية خاصة مادامت تحتضن أكبر عدد من القصبات ؟ هل لهذا المفهوم دلالة عسكرية أم مدنية أو بعبارة أخرى ينتمي إلى العمارة العسكرية أو إلى العمارة المدنية ؟ إن البحث المعماري والأثري بالمغرب لازال يحبو في خطوات صباه الأولى فلم تحصل له بعد تراكمات للحديث عن نوعية أو أنواع القصبات بالمغرب. إلا أننا لاحظنا أن بلاد الشاوية تجيب مختلف أنواع قصباتها على البعض من هذه الأسئلة، وأحسن نموذج على ذلك هو "قصبة القرشي بن الرغاي"، التي تعتبر من عداد المآثر التاريخية المجهولة علميا مثل أصحابها من أسرة الرغاي، والمنسية محليا من طرف ساكنتها ومسؤوليها[3] . وإننا بنشرنا لهذا المقال اليوم نرجو من كل غيور الالتفاتة لهذه العمارة التاريخية للمحافظة عليها لأنها إرث غني في ملك المنطقة والوطن.

إن الإشكال الثاني المطروح، هو إشكال مباشر، ذلك أن منطقة الهباطات، التي تبعد عن مركز كيسر الحالي بحوالي 10 كيلومترات، تضم ثلاث قصبات :

2 - ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين) : لسان العرب، ج. 8، ص. 290.

3 - مهرجان تخليد ذكرى وفاة المقاوم : القرشي بن الرغاي، بالهباطات، من تنظيم لجنة الشاوية للأبحاث والدراسات بتاريخ 9 غشت 1998.

- قصبة الحمادات.
- قصبة دوار الذهابة.
- قصبة الهباطات أو الجاه (الجيلالي) بن الرغاي.

وتبين من خلال الدراسة الميدانية والرواية الشفوية أن القصبة المقصودة هي القصبة الأخيرة "قصبة الهباطات" شمال شرق دوار الذهابة وتعرف أيضا بقصبة القرشي بن الرغاي.

أطلق علال الخديمي على القرشي بن الرغاي أنه : «كان من أبرز زعماء الانتفاضة بأولاد بوزيري وأولاد سيدي بنداود»[4]، ويتعلق الأمر بانتفاضة ومقاومة قبائل الشاوية للتدخل الأجنبي سنة 1907 . إذن من هو "القرشي بن الرغاي" ؟ لم تكتمل بعد لنا ترجمة كاملة لهذا الشخص، وما استطعنا جمعه لا يتعدى ما رددته النصوص المتأخرة.

ظهر القرشي أول مرة كخليفة لأخيه القائد الجيلالي بن الرغاي بأولاد سيدي بنداود، ويبدو أنه شغل هذا المنصب مع نهاية القرن التاسع عشر وربما أن تعيين أخيه قائدا كان في فترة مولاي الحسن الأول، لأن الإشارة الثانية لنا حول المترجم له تعود إلى سنة 1903 وهو تاريخ تعيينه "قائدا للسيبة" مكان أخيه، قائد المخزن، بعد انتخابه من طرف قبيلته.

إن شهرة القرشي بن الرغاي على كل لسان داخل قبيلته أولاد سيدي بنداود أو خارجها كقائد وزعيم امتاز بالشجاعة والاستماتة والذكاء ؛ وتذكر الرواية الشفوية من حيله أنه اتفق مع الفرنسيين للتعامل معهم، فأمدوه بالأسلحة والعتاد ثم انقلب عليهم وحاربهم بأسلحتهم.

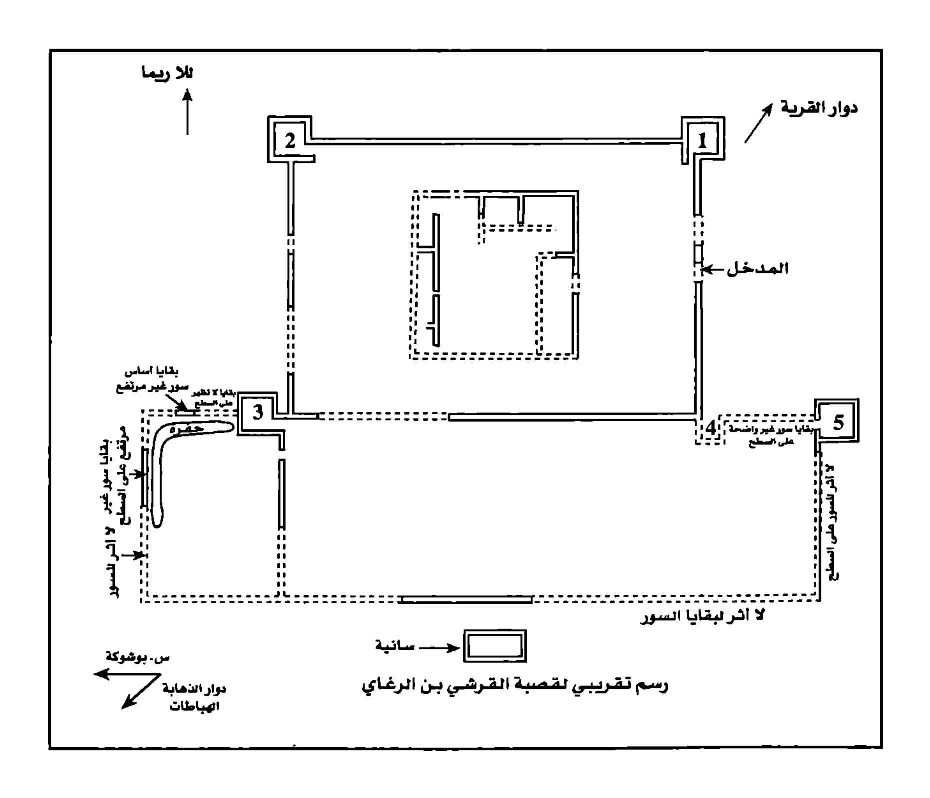
وتسميه الرواية بـ "قائد الزرف" بينما الخديمي وضعه ضمن "مقدمي الرمي المشهورين بالشاوية".

ظل القرشي يقاوم التدخل الأجنبي بين مدينة الدار البيضاء ومدينة سطات مدة أربع سنوات سقط بعدها

4 - علال الخديمي : التدخل الأجنبي والمقاومة بالمغرب (1894 - 1910)، حادثة الدار البيضاء واحتلال الشاوية، الدار البيضاء 1994، ص. 186.

شهيدا في إحدى معارك مدينة سطات قبل احتلالها سنة 1908 ، وبهذا احتلت القوات الفرنسية منطقته وألقت القبض على أخيه الجيلالي بن الرغاي الذي أظهر هو أيضا معارضته للاحتلال الفرنسي، وبقي سجينا إلى أن توفي في سنة 1914 . وتوجد حاليا داخل مقبرة الهباطات بضريح سيدي بوشوكة ثلاثة قبور متقاربة بشواهدها : في الوسط قبر القرشي بن الرغاي وإلى يمينه قبر الحاج الجيلالي بن الرغاي وإلى يساره قبر الولي بوشوكة.

يعود تاريخ تأسيس القصبة، بدون شك، إلى تاريخ قيادة الجيلالي بن الرغاي خلال السنوات العشر الأخيرة من القرن التاسع عشر. ويكون



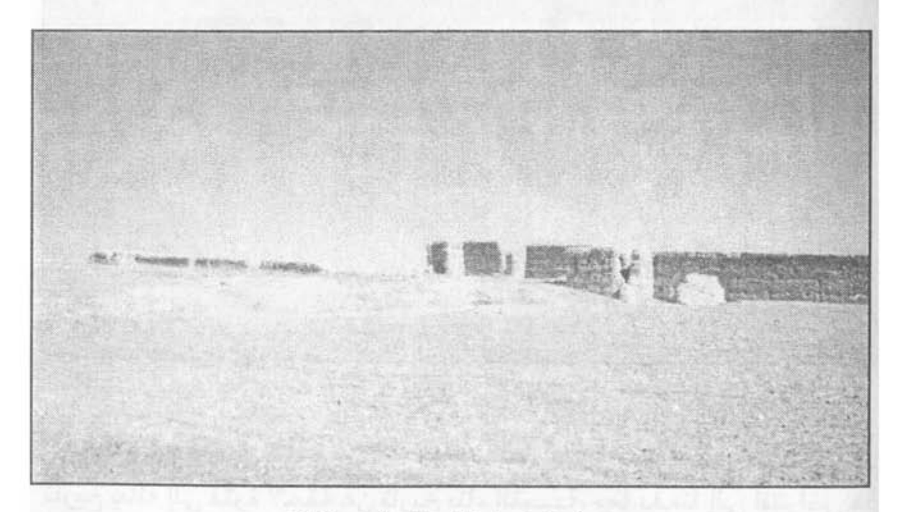
رسم تقريبي لقصبة القرشي بن الرغاي

مؤسسها هو نفسه، وخلفه في إدارتها، بالإضافة إلى إدارة القصبات الأخرى، القرشي بن الرغاي الذي حملت القصبة اسمه إلى يومنا هذا.

يتكون بناء القصبة في مجمله من القصبة وملحقها ويربط بينهما السور الجنوبي الغربي للقصبة (انظر الصورة رقم 1)، وشكلهما الهندسي مستطيل والعلاقة الهندسية بينهما أن الأولى، أي القصبة، أقل اتساعا وأكثر عمقا من ملحقها، واتساع هذا الأخير هو الذي فرض نقل الأبراج إلى خارج زوايا القصبة (انظر التخطيط التقريبي للقصبة).

فرضت تقنية البناء "الطابية" استعمال التربة المحلية التي أعطت للبناء لونا يميل إلى الحمرة والصفرة حيث أضيفت إلى التربة المحلية مادة الجير والتربة البيضاء.

ويخضع تصميم قصبة ابن الرغاي إلى هندسة القصبات المنتشرة خلال القرن التاسع عشر ببلاد الشاوية أي الشكل المستطيل بأربعة أبراج الزوايا المربعة الشكل، إلا أن تغييرا طرأ على القصبة الأولى وذلك بإضافة ملحق



صورة للواجهة الغربية والبرج الثالث

مستطيل الشكل غير من القاعدة العامة لتموضع الأبراج. البرجان رقم 3 و 4 لا يحتلان زاويتي المستطيل، فالبرج رقم 3 يبتعد قليلا عن زاوية السور وأصبحت فتحته (أي بابه) داخل الجزء الثاني من القصبة وليس داخلها. أما البرج الرابع فتم إلغاء جسمه وتعويضه ببرج آخر (برج 5) في إطار توسعة القصبة إلى ملحقها وتمديد السور الجنوبي الغربي في اتجاه الجنوب (انظر صورة رقم 2).

يوجد وسط مسورة القصبة بناء مربع الشكل، مادة البناء وتقنيتها لا تختلف عن تلك التي بالمسورة والأبراج، والبناء مقسم إلى مساحات مستطيلة تحيط بفناء بالوسط وهي غرف البناء الذي كان منزلا للقائد الجيلالي ثم للقرشي (انظر صورة رقم 3).



منزل القائد داخل القصبة

يبدو أن القسم الثاني من القصبة، والذي أطلقنا عليه أعلاه بالملحق، يعود تاريخ بنائه إلى فترة لاحقة عن تاريخ بناء القصبة، وما دفعنا إلى افتراض هذا

هو وضع البرج الرابع في علاقته، من جهة بالقصبة، ومن جهة ثانية بالملحق، فلم يظهر منه إلا بقايا على السطح بينما بني برج آخر، رقم 5، وضعه الهندسي شاذ جدا في علاقته بالبناء ككل (انظر التخطيط التقريبي).

من الصعب تحديد وظيفة الجزء الثاني لأن سطحه فارغ من أي بناء، ولكن يمكن افتراض أنه كان يستعمل إسطبلا للخيول والبهائم.

إن الحالة البنائية للقصبة في ترد وتقهقر مستمرين، فإذا كانت الأسوار والأبراج لازالت ظاهرة اليوم بارتفاع لابأس به، أكثر من مرتين، فإننا لا نضمن طول عمر هذه المعلمة ولا أمل في بقائها، ويعود هذا التخوف لسببين أساسيين من بين الأسباب الأخرى :

الأول : أن طبيعة البناء بالطابية حسب نسبة المواد المستعملة، تسمح بتفاعل الأمطار مع مادة التراب المرتفعة وبالتالي بابتعاد مادة الجير عن مادة التراب، ويؤدي هذا إلى بداية تفسخ البناء واندثاره تدريجيا.

الثاني : وهو نتيجة للأول، إن غياب الاهتمام والعناية بالقصبة وغياب قرار مسؤول لترميمها وإحيائها سيجعلها في الموضع النائي الذي تتموضع عليه مهجورة ومخربة وبالتالي سيضيع، بالنسبة لنا كباحثين، نموذجا من نماذج قصبات القرن التاسع عشر وبالنسبة للسكان المحليين أهم تراث معماري وتاريخي عندهم.

مائدة مستديرة :

انتفاضة الشاوية

بحلول ذكرى انتفاضة الشاوية 1907 نتذكر القصف الوحشي الذي قامت به القوات الاستعمارية الأوربية (الفرنسية والاسبانية) لمدينة الدار البيضاء وقتل الآلاف من سكانها العزل، ونزول هذه القوات لاحتلال المدينة ثم منطقة الشاوية بعد ذلك، تمهيدا للاحتلال الشامل لأرض المغرب وتنفيذا للمخطط الاستعماري الذي وزع مناطق العالم بين مختلف القوى الأوربية العظمى، وجعل المغرب منطقة نفوذ لكل من فرنسا واسبانيا.

وقد بدأ تنفيذ هذا المخطط عن طريق عدة معاهدات واتفاقيات غير متكافئة تمس بالسيادة المغربية ثم انتقل المخطط إلى الاحتلال العسكري المباشر في بداية القرن باحتلال القوات الفرنسية لمنطقة «توات» المغربية، ثم انتهاز مقتل الطبيب الفرنسي موشان بمراكش لاحتلال مدينة وجدة في 29 مارس 1907 ، ثم قنبله مدينة الدار البيضاء واحتلالها بحجة الانتقام لمقتل بضعة عمال أروبيين (30 يوليوز 1907).

احتلال الدار البيضاء بدأ يوم 5 غشت 1907 ولم يكن بالأمر السهل فقد كانت المقاومة شرسة ومستميتة، ولم تستطع القوات الاستعمارية «إخضاع» المدينة إلا بعد تدميرها تدميرا شاملا ؛ وبعد قتل الآلاف من سكانها في مجزرة وحشية مازالت الكتابات والمراسلات الصحفية والصور الفوتوغرافية شاهدة عليها : لقد كانت الحصيلة ما يزيد عن 6.000 قتيل من سكان المدينة ما بين مسلمين ويهود، سكان الشاوية والقبائل المجاورة هبوا لنصرة اخوانهم في المدينة فحوصرت القوات الفرنسية لعدة أشهر ودارت عدة معارك على الأطراف : في دار بوعزة، وفي سيدي مومن وفي تادرت وغيرها... ثم انتقلت المعارك بعد ذلك إلى كل مناطق الشاوية بعد توسع الاحتلال، ومازال الاحفاد يذكرون ما رواه الاجداد عن هذه المعارك وعن الابطال الذين خرجوا من رحم الشعب لقيادة هذه المعارك دفاعا عن الأرض وعن الكرامة.

إنجاز :.جريدة الاتحاد الاشتراكي
8 غشت 1998

▲ شعيب حليفي : إن انشغالنا باستحضار ما وقع بالدار البيضاء وسهول الشاوية خلال سنتي 1907 و 1908 ليس ترفا نشهره في وجه القبائل أو نزوة عابرة نغذي بها الحنين المفتقد... وإنما هو انشغال بدلالات عميقة ومتعددة ترتبط بشكل حلقي، فمنها :

- أولا ما هو علمي وتاريخي يتعلق بالضرورة الملحة لخلق تراكمات، في هذا المجال، من الأسئلة المتنوعة خصوصا، وملء بعض الثغرات بدأت تتسع في تاريخنا.

- المسألة الثانية تتصل بوصل ذاكرتنا بكل لحظاتها والكشف عن البؤر ذات التأثير الطويل المدى في حياتنا...

- ثالثا، التأسيس لثقافة جديدة انطلاقا من قيم التصدي الشعبي وما أفرزته المرحلة من مبادئ وأسس تشكل عصب شخصيتنا الحقيقية.

- رابعا كل هذا الاستحضار والانتباه منا ومن غيرنا هو من أجل فهم ذواتنا بقصد فهم حاضرنا، ففي لقاء جماهيري خلال السنة الماضية يوم تاسع غشت 1997 ونحن نحتفل بالذكرى 90 بحضور ممثلين من كافة المدن المغربية شمالا وشرقا وغربا وجنوبا توقفنا عند خلاصة تربط هذا الماضي بهذا الحاضر من الاحتلال إلى العولمة.

إننا، ونحن نشكل جيلا قدر عليه أن يجد نفسه في **مأزق تاريخي**، كان لزاما علينا أن نبحث عن مسارات تسندنا من تاريخنا الوطني، والقبلي جزء منه، لذلك فدلالات انتفاضة الشاوية هي في تربية وعينا وإذكاء لروح الوطنية فيه...

▲ عبد الحميد احساين : حينما تطرح قضية من الاحتلال إلى العولمة، فإني أسجل لقاء ثقافتين وذهنيتين من عالمين مختلفين، مجتمع مغربي له مقومات خاصة توسم بأنها تقليدية لها خلفياتها الدينية وأساليبها البسيطة، مقابل عالم غربي متطور بإمكانيات مادية وعسكرية تفضي إلى الحس

الامبريالي. وقد جاء الاحتلال ليبرز التناقض بين عالمين متنافرين، خصوصا خلال التغلغل الأجنبي قبل 1907 ، حيث كان هناك عنف ودسائس واحتكارات وربما كل الوسائل غير المشروعة.

وفي 1907 ـ 1908 تفجر التناقض لأن العلاقة اكتسبت طابعا عسكريا صرفا، والنتيجة هي تمكن العالم الأوربي، المتمَثل في فرنسا، من الادماج القسري للمجتمع الشاوي.

وكل هذا ينسجم مع الأفكار الامبريالية التي تستدعي توسيع مجالات تابعة لها.

وإذا كانت من ضرورة لاستعادة هذا الحدث فلتمجيد البطولات وتسليط الأضواء عليها، ولحد الآن يجب أن نتفق أن تاريخ المغرب وكل جوانبه لم تدرس بعد، وضروري دراسته عبر الجهات.

▲ شعيب حليفي : ومن المسؤول عن هذا التقصير... بل تأتي علينا لحظات نحس فيها إحساسا رهيبا إننا في نفق خلفنا مثل ما هو أمامنا وأقدامنا على أسفلت رخو...

▲ عبد الحميد احساين : إننا لا نجد في العديد من الكتابات الشيء الكثير، بل إن عدة وجوه مغربية بارزة في المقاومة وفي المجال السياسي أغفلت استحضار مقاومة 1907 بالشاوية، وما كتب عنها كان بعديا بهواجس الحاضر، وهو ما يدفعني إلى طرح بعض الأسئلة من قبيل : هذا النسيان الذي طال انتفاضة الشاوية هل هو مرتبط بطبيعة الحركة ؟ أم أن الكتابة التاريخية ككل تتشبع بهموم الكاتب / المؤرخ... ولهذا، فهي كتابة انتقائية وليست هناك **استراتيجية لكتابة تاريخ المغرب**، وتاريخ المقاومة بشكل خاص منذ بداياتها المبكرة.

▲ نور الدين فردي : مع بداية القرن 20، عرف المغرب مجموعة من التحولات نتيجة لتطورات المراحل السابقة، وكان من بين هذه التحولات /

المعاهدات المبرمة بين الدول الأوربية فيما بينها أمر تحديد مصير المغرب، هذه الاتفاقيات تم عقدها فيما بين 1900 و1911، وكانت فرنسا المحرك الأساسي لهذه المعاهدات مع إيطاليا وإسبانيا وألمانيا، إضافة إلى مؤتمر الجزيرة الخضراء (1906) ؛ وبقراءة سريعة لهذه المعاهدات ومؤتمر الجزيرة يلاحظ بأن الدول الأوربية، وخصوصا فرنسا واسبانيا، بدأت تتحكم في مصير المغرب، حيث بدأت تراقب الأمور الداخلية، ولذلك بدا واضحا أن المخزن أصبح عاجزا عن القيام بدوره، هذه الوضعية هيأ لها الاستعمار قبل بداية القرن 20 عن طريق المعاهدات اللامتكافئة (1856 / 1860 / 1863 / 1880)وعن طريق توسيع نطاق الحماية والمخالطة وقد ساهمتا في عدم الاستقرار على المستوى الداخلي.

وفي مطلع هذا القرن، بدأت فرنسا التفكير في الانتقال من العمل السياسي إلى العمل العسكري، وكانت أولى الخطوات سنة 1899 باحتلال منطقة توات لكن مجموعة من الأحداث حدّت من تطور هذا العمل الذي شرعت فيه فرنسا من جديد سنة 1907 عن طريق افتعال حادثة الدكتور موشان (احتلال وجدة) ثم احتلال الدار البيضاء والشاوية.

إذن، احتلال الدار البيضاء والشاوية عمل يندرج ضمن خطة استعمارية مخطط لها مسبقا، وبطبيعة الحال، فإن أي عمل عدواني استعماري لابد أن يواجه. ولذلك قام سكان الشاوية بانتفاضة كبرى ضد هذا الاحتلال وقاوموا الاستعمار بأشكال متعددة رغم قلة الإمكانيات خصوصا العسكرية، وأظهر سكان الشاوية مدى تمسكهم بالدفاع عن الأرض ومواجهة المحتل فسقط العديد من الشهداء طيلة فترة المقاومة.

قبل الاحتلال، برز عدة ثوار من أمثال **القرشي بن الرغاي**، قاوموا الاستبداد المخزني ثم الاستعمار الفرنسي حتى الاستشهاد.

▲ شعيب حليفي : يطرح الجانب التاريخي لانتفاضة الشاوية مجموعة من

التساؤلات الجذرية علينا... منها أن المخزن أنذاك، كان يتسم بالضعف والتفكك الداخلي ثم الاستسلام السريع وهو ما عجل بفتح «باب المرسى»، وارتكاب جرائم في حق مغاربة حي التناكر والسور الجديد.

إن هذا الأمر يخلق لدي انطباعا أكيدا بما كان عليه حال المخزن في تلك اللحظة مقابل التنظيم والوعي الوطني عند سكان الشاوية قبل 1907، وفي خضم الانتفاضة وبعدها...

لنرجع قليلا إلى الوراء. ففي سنتي 1903 / 1904، وبغض النظر عن المعاهدات والاتفاقيات المعبرة عن الضعف والتفكك والاستسلام فإن الثورات التي قامت في عدة نقط من سهول الشاوية - جنوبا - تمثلت في هجوم السكان بقيادة فقهاء ورماة وفرسان على القصبات وطرد القواد المخزنيين وتخريب رموز الاستبداد ثم انتخاب زعيم يسير شؤونهم ويعقد الاتفاقات مع القبائل لتجاوز التناحرات والخلافات المفتعلة...

إن هذه الأحداث الأولى كانت موجهة أولا ضد هذا التفكك الذي يجعل الأطماع في احتلال المغرب من بوابة الدار البيضاء والشاوية بارزة وقريبة، ويحضرني اسم **القرشي بن الرغاي** أحد زعماء إحدى الثورات سنة 1903 بأولاد سيدي بنداود، نموذج الفقيه والفارس الوطني، والذي سيدافع عن الشاوية ويستشهد سنة 1908، وسنحتفل به هذه السنة يوم تاسع غشت 1998 في موقعه حيث يوجد قبره وحفدته وأهله بجماعة **ريمة-لهباطات**.

ونموذج هذا البطل كان موجودا في كل السهول مع أسماء وشهداء ساهموا بشكل جلي في مجابهة الاستعمار والمتعاونين معه... وهم عادة من الفقهاء والفرسان، مما يجعل انتفاضة 1907 حركة مسنودة بحس ديني وآخر وطني شعبي.

▲ عبد الحميد احساين : استندت السياسة التوسعية الفرنسية إلى ثلاثة أشياء : الوضع الداخلي الفرنسي، الوضع الدولي العام، ثم الوضع الداخلي

المغربي. وأهم ما كان في هذه السياسة هو الفكرة السائدة التي تقول بأنه لا يمكن احتلال المغرب دفعة واحدة، وما زاد الأمر اقتناعا هو ظهور سياستين : واحدة للقبائل وسياسة المخزن، هذا الأخير الذي مال لسياسة المهادنة منذ 1900 ، لكن ذلك كان مرتبطا بقدرة الأوربيين وبمرحلة جباية الضرائب سنة 1904، وبعنصر التلاحم الجامع بين ما هو ديني ووطني.

▲ نور الدين فردي : كانت للشاوية أهمية بالنسبة للمخزن، حيث كا يعتمد عليها في «الحركات» كما أنها كانت موردا مهما للضرائب، إضافة إلى أهميتها الفلاحية، وإذا ما أضفنا إلى ذلك، مداخيل «مستفاد» مدينة الدار البيضاء ومدخول المرسى نلاحظ أهمية المنطقة.

وقد كان الفرنسيون على علم بأهمية الشاوية، ولذلك انتشرت الحماية والمخالطة تمهيدا للتغلغل الاستعماري، وأصبحت الشاوية ضمن الخطة العسكرية فيما بعد، ويتضح من خلال أسباب احتلال الدار البيضاء أنها كانت أسبابا عدوانية واستعمارية حيث ركزت على انعدام الأمن واستطاعت فرنسا الحصول على التنديد الدولي لهذه الوضعية، فقد راسل نواب الدول بطنجة الوزير عبد الكريم بن سليمان في 11 فبراير 1907 ليقوم بإخبار السلطان عن حالة الدار البيضاء «المشوشة» نظرا لعزم القبائل على مواجهة المدينة وركزوا في رسالتهم على تغيير عامل الدار البيضاء،وبعد ذلك، تذرعت فرنسا بقتل العمال التسعة الذين كانوا يقومون بالأشغال في الميناء لتقوم بقنبلة المدينة ثم الإنزال العسكري.

ويلاحظ مما سبق أن فرنسا كانت مستعدة لهذا العمل، وتنتظر الفرصة المناسبة لذلك، ويمكن الرجوع إلى الكتابات الاستعمارية (المراسلات العسكرية، الكتابات الصحفية...)لمتابعة مراحل الاحتلال الذي تعرضت له الدار البيضاء والشاوية. غير أن هذه الكتابات تهمل الحديث عن المواجهة العنيفة للاحتلال والمقاومة التي أبداها السكان في التمسك بأرضهم، وتحاول

إعطاء صورة عامة على أنهم متمردون وأن أشخاصا آخرين لهم حسابات شخصية دفعوا بهم إلى هذا التمرد (مثل قائد أولاد حريز...) وكرههم للأجانب...

استعمل الفرنسيون خلال مراحل الاحتلال أسلحة متطورة (مدافع وبنادق متطورة...) وخططا عسكرية مدروسة...

وعلى المستوى المحلي بالنسبة لانتفاضة الشاوية، هناك موقفان : موقف المخزن ووقف سكان الدار البيضاء والشاوية.

▲ شعيب حليفي : لماذا نسيان كل هذا التراث الذي يغذي أمالنا ويكشف عن ميكانيزمات دقيقة في راهننا.

كل شيء واضح وسط التباس مرحلة كاملة منذ 1903 حتى الآن، ونحن فقط من نبرر ونغلف ونختلق ونفتري... ونحرف الأشياء في خطوط من السراب... لماذا لا نقول الأشياء، كما قالها **الأحمر بن منصور** أو كما تكلم بها **القرشي بن الرغاي** أو **محمد بن عبد السلام**. إن البعد السياسي للانتفاضة هو جزء أساسي مما نبحث فيه، تليه الأبعاد الثقافية والعلمية والتاريخية... ولابد اليوم من الكشف عن هذا الجزء من تاريخنا إن نحن أردنا أن نفهم لوحة اليوم.

لنحدد المفاهيم، كل من ينفي عن أحداث الدار البيضاء والشاوية اسم الانتفاضة يبحث عن شيء آخر، والحقيقة أنها أكبر من الانتفاضة، لأنها المهد الأولي للمقاومة الشعبية البعيدة عن الحسابات القبلية والمرتبطة بالحس الوطني والهوية المغربية، مقابل انبطاح السلطات في الدار البيضاء وتواطؤ بعض القياد والباشوات والعملاء من الأغنياء والإقطاعيين من السماسرة والمحميين والمخالطين.

▲ نور الدين فردي : بالنسبة لموقف المخزن، فهو يتسم بالغموض والضعف. وبالرجوع للمرسلات المخزنية، نلاحظ أن موقف المخزن أصبح

ضعيفا ويحاول ما أمكن الابتعاد عن أية مواجهة مع القوى الخارجية لعلمه بنواياها وعلمه بضعفه العسكري. فالمخزن هو المسؤول عن إقرار المراقبين الأجانب بالديوانة، وعلى علم بتحركات الشركة الفرنسية في الدار البيضاء، ويمكن أن نقف على موقفه من خلال رسالة سلطانية موجهة بتاريخ 29 جمادى الثانية 1325 إلى قواد الشياظمة وأعيانهم وشيوخهم يشرح فيها دواعي جلوس المراقبين الأجانب في الديوانة، ويرجع أسباب نزول الجيش الفرنسي إلى هجوم بعض الرعاع على دار القونصو الفرنسي. وإجمالا يمكن القول بأن المخزن لم يكن يرغب في أية مواجهة مع الأجانب، لأنه كان على علم بأن الأمور تجاوزته وعلى علم بنوايا فرنسا، وكان يحاول تفويت أية فرصة عليها.

أما موقف السكان، فإن التحرشات الأجنبية أدت إلى استفزاز سكان مدينة الدار البيضاء وقبائل الشاوية، خصوصا بعد جلوس المراقب الأجنبي في الديوانة وشروع الشركة الفرنسية في التوسع، وبطبيعة الحال، قام السكان بمواجهة الإنزال واستعدت القبائل للمواجهة حيث حاصرت المدينة بعد أن تعرضت للقنبلة وظلت القوات الفرنسية رغم الحملات التي كانت تقوم بها من حين لآخر محاصرة لمدة ثلاثة أشهر في الدار البيضاء.

وقد اعتمدت قبائل الشاوية في انتفاضتها على إمكانياتها الذاتية أولا، حيث نظمت القبائل نفسها وحاولت محاصرة الفرنسيين، لكن الأسلحة المتطورة وانبساط تضاريس الشاوية ساعدت الفرنسيين على تنفيذ مراميهم الاستعمارية، لكن المعارك التي جرت في منطقة الشاوية كانت كثيرة كمعركة السور الجديد ومعركة سيدي مومن ومعركة تادرت تراجعت القبائل لتقود معارك أخرى بتيط مليل وسيدي حجاج وزاوية سيدي المكي وسطات... والمذاكرة.

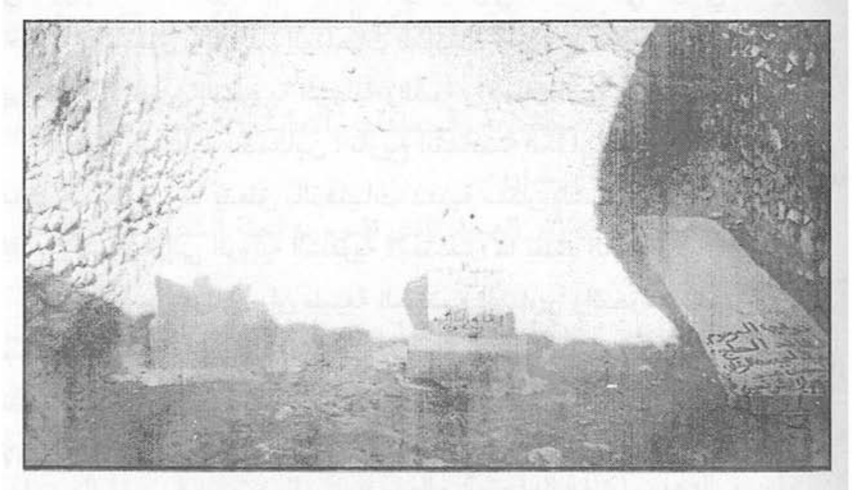
▲ عبد الحميد احساين : أتحفظ على القول بأي تواطؤ للمخزن مع الاستعمار، حيث كان قبول المخزن بهذا الوضع على مضض، ويمكن

استعراض كافة الملابسات السياسية والاقتصادية لفهم ما وقع وانتهى بموقف استسلامي.

في السابق ـ من أجل المقارنة بين ما سمي بالاحتلال والعولمة ـ كانت للمخزن نخبة تقليدية «تواجه» رغبة الأجانب في التوسع وحاجتهم إلى المال والاصلاح، والآن صارت للمخزن نخبة من الانتلجنسيا متشبعة بثقافة الغرب... وها نحن الآن قد ركبنا قطار العولمة منفردين، برغبتنا أو قسرا، دون البحث عن تكتلات عربية وإفريقية.

▲ شعيب حليفي : الاحتلال الذي واجهه أجدادنا الشهداء بكل إيمانهم الباذخ والمصفّى، لم يكن قدرا، وإنما هو مؤامرة، كذلك العولمة الملفوفة في قُماطات التواصل والتقنية والاقتصاد السريع ليست قدرا، وإنما نفق جديد من أجل استكمال القبضة الامبريالية علينا جميعا.

هل نحن، الحفدة، أقل من أجدادنا ؟ كيف نجيب عن هذه الأسئلة المحرجة ؟



قبر الشهيد القرشي بن الرغاي يتوسط قبر أخيه الجيلالي
والولي الصالح سيدي بوشوكة

▲ نور الدين فردي : التساؤل مطروح على العديد من الشعوب والتجارب، وأعتقد أن المغرب في تجربته السياسية الحالية يحاول الإجابة عن جزء من هذا السؤال عبر التغيير، انطلاقا من تحديث الادارة وتأهيل المقاولة ثم المعرفة.

▲ شعيب حليفي : هذه الحالات الموازية للانتفاضة... ما قبلها وبعدها خلقت تعبيرات متناقضة وأصوات مازالت حتى الآن يتم البوح بها صراحا أو ضمنيا أو بالصمت المريب.

صوت بعض المؤرخين المتواطئين في تلك المرحلة وأصوات بعض الفقهاء الذين سوغوا ما يخالف أصوات اليأس... كل هذا كانت تقابله قوة صاخبة من المتخيل الشعبي المتنوع في بعض التقاليد، في المقاومة والعادات، في التعايش والتضامن... وكذلك في القيم وتشكيلاتها.

إن أهم ما في هذا المتخيل، هو الصدق الفني الذي استطاع تحويل ما هو واقعي جامع لمتناقضات المرحلة وفرحها المتطاير إلى حلم متجسد، سواء في الروايات الشفوية الجانحة نحو البطولي ـ الملحمي، أو في العيطات العامرة بالتحفيز والسرد والمناحات الشديدة الاتصال بالأرض والوجدان.. أو غير ذلك من الفنون التعبيرية الزجلية والفنية والأمثال السائرة...

▲ عبد الحميد احساين : تاريخ انتفاضة الشاوية فيه ما هو سياسي حدثي عسكري وما يتعلق بالذهنيات، ذهنية سكان الشاوية في هذه المرحلة، لابد من الرجوع إلى الرواية الشفوية لاستكمال ما يبدأه المؤرخ.

▲ نور الدين فردي : إن طبيعة المجتمع الشاوي والتحولات السريعة التي طبعته بعد 1907 أثرت كثيرا على الأشكال الفنية من أغنية وشعر، حين لم تظهر نصوص كثيرة للسرعة التي كانت تجري بها الأحداث، وظهرت بعد الانتفاضة كتابات شتى. ونحن اليوم، نعاني من ندرة هذا المتخيل وتعبيراته كونها لم توثق.

▲ عبد الحميد احساين : هذا في محصلة الأمر يعني ضرورة التوثيق التاريخي والفني للانتفاضة والاهتمام من طرف كل مسؤول أو غيور بهذا الموضوع، خصوصا الملفات المهمة حول الشاوية بالخزانة العامة، والتي تم إقفالها مؤخرا في وجه الباحثين...

▲ نور الدين فردي : لدي بعض الاقتراحات العملية في هذا السياق هي كالتالي :

- تجميع الكتابات الخاصة بالشاوية عموما والانتفاضة خصوصا في مركز واحد حتى تسهل عملية البحث العلمي.

- توجيه نداء إلى الأفراد والمؤسسات التي تتوفر على وثائق تاريخية قصد إمداد الباحثين بها لتطوير البحث ببلادنا.

- إعداد دراسات حول المآثر الموجودة بالمنطقة قصد المحافظة عليها.

- إقامة نصب تذكارية في أماكن المعارك الكبرى التي وقعت بالشاوية.

- مطالبة المجموعة الحضرية والجماعات والادارات المعنية بإقامة متحف ومركز للدراسات خاصة بالشاوية.

- المساهمة في تطوير العمل الذي تقوم به لجنة الشاوية ليرقى إلى مستويات أعلى.

▲ شعيب حليفي : اعتبارا للدين التاريخي الذي هو علي عاتقنا تجاه هذه المرحلة بكل شهدائها وفلاحيها، اعتقد أن المسؤولية مشتركة من أجل المزيد من البحث والتنقيب والارتباط بالنظرة الواقعية.

وأجدد الدعوى لكافة الباحثين والمؤرخين والمهتمين في هذا الميدان إلى رص الصفوف والالتفاف من أجل فهم أدق لمسار المقاومة

المـغـربـيـة واسـتـخـلاص بعض المـفـاتيح المـسـتـحـكـمـة فـي راهـنـنـا ومستقبلـنـا.

كمـا أدعو إلى رد الاعتبار لشـهداء الانتـفـاضـة بوضـع نصب تذكـارية في مواقع معارك 1907 ـ 1908 ومـا بعدهـا من سنوات الجمر وتسمية الشوارع والساحات بأسمائهم ؛ وبكل تأكيد، فمن جانبنا ـ نحن ـ نعتبر المسألة قضيتنا، حيث ضـربنا ـ هذه السنة ـ موعـدا في منطقة ريمة أولاد سيدي بنداود، منطقة لهبطات للوقوف على ملحمة انتـفـاضـة الفلاحين بقيادة القـرشي بن الرغـاي، فإننا فـي السنة المقبلة، سنحيي ذكرى الانتفاضة بمنطقة المذاكرة مع الأحمر بن منصور ويمكارطو إلى جانب آلاف الشهداء.

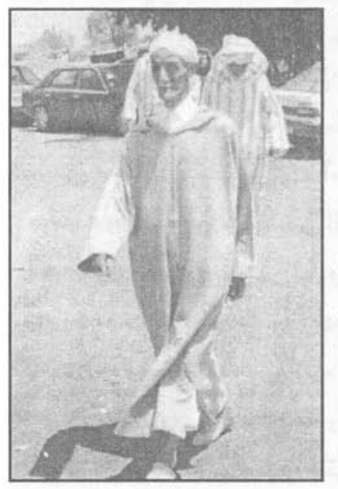
احتفالية القرشي بن الرغاي

جلال كندالي

يوم تاسع غشت 1998 نظمت لجنة الشاوية (مؤسسة تامسنا للدراسات والأبحاث حول الشاوية) لقاءا موسعا بمنطقة **الهباطات** جماعة **ريمة** - أولاد سيدي بنداود إقليم سطات، أمام سكنى الشهيد **القرشي بن الرغاي** وبحضور حفدته وعائلته والعديد من الفلاحين من ساكنة أولاد سيدي بنداود وعدد من الحضور النوعي من الرباط والدار البيضاء وممثلين عن إقليم سطات ومثقفين ومن عموم الناس وذلك ردا لدين أخلاقي وحضاري، وإيمانا بإعادة الاعتبار لكل الشرفاء والشهداء من أبناء هذا الوطن، الذين استرخصوا أرواحهم ليبقى الوطن حرا، ووفاء للحقيقة والتاريخ. وقد كانت الخيمتان اللتان أقيمتا بهذه المناسبة قريبا من المقبرة التي يرقد فيها الشهيد القرشي بن الرغاي وعدد من المجاهدين الذين استشهدوا في مطلع هذا القرن... وقريبا من محل سكناه.

وبعد افتتاح هذا الحفل بآيات من القرآن الكريم تحدث **شعيب حليفي** الذي ترأس أشغال هذه الاحتفالية مشيرا بأن اللقاء يدخل في إطار الذكرى 90 لانتفاضة المقاومين والمجاهدين من أبناء الشاوية ضد الاحتلال الفرنسي، هذه المقاومة التي لم يكتب لها أن تدون في التاريخ بالشكل الحقيقي الذي يرد الاعتبار للحقيقة التاريخية، والآن توجد مجموعة من الخلصاء الوطنيين للتذكير بهذه الذاكرة لمجتمعنا وما تحتوي عليه من قيم وأخلاق ومثل عليا، ومن هنا

يضيف حليفي جاء احتفالنا بالبطل القرشي بن الرغاي الذي يعتبر رمزا وقدوة لجيلنا ولكل الأجيال باعتباره ثائرا سنة 1903، ومجاهدا كبيرا منذ سنة 1907 - 1908، وهو يتصدى رفقة أولاد سيدي بنداود وأولاد سعيد وأولاد بوزيري والمزامزة للاستعمار ولأذياله، إلى أن استشهد في يناير 1908 دفاعا عن مدينة سطات في لحظة فارقة... فتقاطرت دماؤه الطاهرة على الأرض وعلى ظهر فرسه الذي أرجعه إلى القبيلة. ويتابع شعيب حليفي قائلا إنه حينما نتذكر القرشي بن الرغاي لا نتذكره كشخص فقط، بل كقيمة للمجتمع تتجسد فيها كل قيم الشجاعة والأنفة والإيمان والطهر ولذي جسده في مرحلة متقدمة من مراحل هذا القرن، وما أحوجنا اليوم إلى هذا النبل لنتغذى به ونأخذه كمثل.



الحاج محمد حدومي

بعد ذلك أعطى الكلمة إلى **الحاج محمد حدومي** أحد حفدة الشهيد باسم الحفدة وأهل الدوار الذي رحب بكل الذين قدموا للاحتفاء في هذا اليوم التاريخي بأحد رموز المقاومة المغربية بالشاوية، معتبرا أن هذا اللقاء فرصة للالتقاء بهذه الوجوه في هذه الأرض الطيبة التي شهدت ترعرع الشهيد ووجوده فقيها عالما ومجاهدا إلى أن استشهد بعز وأمانة.

ثم أخذ الكلمة الدكتور **عبد المجيد بوزوبع** الذي بلغ الحضور تحيات محمد نوبير الأموي الذي كان حاضرا السنة الفارطة بمناسبة الاحتفال بالذكرى التسعين لانتفاضة الشاوية بالبيضاء، والذي لم يتمكن من الحضور اليوم لتواجده في مهمة خارج الوطن، واعتبر بوزوبع أنه إذا كان الشهيد القرشي بن الرغاي في عداد الموتى، فإنه بأعماله الجليلة وفكره وقيمه الوطنية

الخلاقة هو حاضر بيننا، وبعد التذكير بالإطار العام الذي يجب الحديث فيه، أشار إلى أنه في مطلع القرن العشرين بدأت التحرشات الخارجية بالمغرب، وبداية معاهدات غير متكافئة إضافة إلى ضعف الحكم المركزي والمديونية الكبيرة وضعف النسيج الاقتصادي داخل البلاد، وكذلك معاهدة الجزيرة الخضراء، كل هذه المعطيات أدت بالمغرب إلى الاستعمار، كما أدت بالجزائر سنة 1830 نظرا إلى مديونيتها الواسعة أن يجعل المستعمر الفرنسي يجتاحها من سيدي فرج إلى الجزائر، وبدأ التحرش كذلك بالمغرب من الجهة الشرقية تحت حجج واهية. وبعد التذكير بالسياق العام الذي أتى فيه الهجوم على البيضاء واحتلالها، يستطرد عبد المجيد بوزوبع أن ما يمكن استخلاصه بالرغم من معاهدة الحماية سنة 1912 والاحتلال الفرنسي والاسباني، وبالرغم من العناصر الأخرى، فإن الشعب المغربي بتضامنه وتآزره إضافة إلى الجانب الديني والوطني، لم يهدأ له البال فكانت المقاومة وانتفاضة الشاوية من بينها، ولكن ما لا يثلج الصدر حقا، هو أن التاريخ المغربي الحقيقي قديمه وحديثه فيه إجحاف كبير في حق التاريخ المغربي وشهدائه وصمود شعبه، والحقيقة كذلك أن التاريخ المغربي لم يكتب إلى حد الآن واعتبر أن ظروف الاحتلال هي نفس الظروف التي نشهدها اليوم. فالمتآمرون الذين مدوا أيديهم إلى الاستعمار هم الذين استفادوا من المغربة إضافة إلى وجود وضع اقتصادي هش ووضع اجتماعي مقلق ومديونية عالية، هذه المديونية التي لم يستفد منها المغاربة، ولكننا نؤديها جميعا، هذه الظروف أدت بالاستعمار الاقتصادي الجديد، أو ما يسمى بالعولمة، وما وقعنا عليه من معاهدات بشكل مجحف بالأمس، وقعنا عليه اليوم مضطرين نظرا لمديونيتنا.

وتطرق الدكتور عبد المجيد بوزوبع إلى فكرة طريق الوحدة في بداية الاستقلال سنة 1957 التي جاءت من أجل التنمية مذكرا بفكرة الأوراش والتي نعيشها اليوم كواقع عملي وفاءا لأرواح الشهداء **المهدي بنبركة** والقرشي ن

وثيقة كتبتها قبائل الشاوية في يوم 31 يوليوز 1907

بالرغاي وغيرهما من الشرفاء لفائدة المصلحة العامة ومن أجل وطن لكل المغاربة، به الديمقراطية الحقيقية وتوزع فيه خيرات البلاد بشكل عادل كما استحضر في كلمته المناضل **العربي زروق** ابن هذه المنطقة البار والذي ذهب ضحية حادثة سير مفجعة.

وعن جمعية الشعلة للتربية والثقافة، أشاد **المكي ناشيد** بهذه المبادرة معتبرا أن اللقاء يدخل في إطار الاهتمامات التي تقوم بها الجمعية فيما هو

تربوي وثقافي وتاريخي مرتبطا بالمجتمع المغربي، إضافة إلى كون هذه المبادرة ساعدت على اختراق مناطق كانت محرمة منذ زمن قريب، ولم يكن بالإمكان في زمن مضى اختراق المجال القروي للتواصل مع هذه الشريحة المجتمعية معتبرا أن القرشي بن الرغاي لم يعد حكرا على منطقة معينة بل أصبح ملكا تاريخيا للمجتمع المغربي، مشددا على أن التاريخ المغربي هو في حاجة إلى إعادة كتابته من جديد انطلاقا من المدارس والثانويات والتعليم العالي، فلا يعقل أن نتصفح كتب التاريخ ولا نجد فيها رمزا من أمثال القرشي بن الرغاي، داعيا إلى إشاعة التاريخ الحقيقي وترسيخه لنتمسك ونفتخر به أكثر.

رئيس جماعة ريمة **جمال خلدون** كان آخر متدخل في هذا اللقاء حيث أشار إلى دلالات هذا الحضور المكثف والمتميز الذي هو اعتراف بالدور الطلائعي الذي قامت به قبائل الشاوية في مواجهة الاستعمار الأجنبي، هذه القبائل التي أنجبت مثل القرشي بن الرغاي، الذي كان رمزا من رموز الحركة الوطنية.

الفهرست

مؤسسة تامسنا للدراسات
والأبحاث حول الشاوية

الثمن : 20,00